

إيهاب عبد ربه

آخر ما تبقّى من الزنبقة

رواية

الفارابي

آخر ما تبقى من الزنبقة

ايهاب عبد ربه

آخر ما تبقى من الزنبقة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: آخر ما تبقى من الزنبقة

المؤلف: ايهاب عبد ربه

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الأول ٢٠١٤

ISBN:978-614-432-268-0

إلى شعبي الذي فعل كل شيء ليكون حاضره ومستقبله أفضل، ولكن الزمن لم يسعفه ،...

إلى نور ونديم وموفق وجميع الشهداء الذين قدموا دماءهم من أجل الحرية...

إلى أمي و أبي..

إلى سيدتي التي أبصرتُ من خلالها كل شيء

و أخيراً،

إلى أصغر شتلة ياسمين في مدينة الحب

دمشق... أهدي هذه الرواية

الفصل الأول

من الجحيم إلى الجحيم

كل شيء ممكن في زمن الهزائم، وكأن هناك تزاوجاً حتمياً بين الهزيمة والخيانة، إن كل هزيمة مدوية وراءها خائن كبير.

عندما يصبح الوطن بحجم رصاصة فلا بد من حزم الحقائب.

هههههه، لا بد أني أضحك كالمجانين سامحيني، فليس لدي إلا الحقيبة بنية اللون التي اشتريناها معاً ذلك النهار في آب، أتذكرين؟ آتي الآن لأقول لك (حزم الحقائب) أتذكرين تلك الحقيبة الجلد التي ألهَمَتكِ، وقلت لي آنئذ بصوتك الرخيم الرائع:

امتشق جسدك كما يليق بمقاتل وارفع كتفيك إلى أعلى. عندما قلت لي ذلك، كأنك كنت تريدين أن تلامس كتفاي النجوم لا أن تحط النجوم ميزة على كتفي؟، عند ذلك حملت الحقيبة بذراعي، وقد حاولت كثيراً أن أقول لك إنني أريد حقيبة ظهر ولكنك أصررت كثيراً وقلت لي: قامتك أشبه بقامات ضباط الخمسينيات والستينيات وأناقتك مثل أناقتهم. سامحكِ الله فأنت طوال عمرك تكرهين المارينز وثقافة السرعة الأميركية، وتكرهين كل ما يمت إلى العبث بصلة، أرأيت؟ هل هناك عبث أكثر من هذا العبث؟ حملقي وانظري، لتري أن كل ما حولنا وكل الأشياء التي نراها ونفعلها ونشعر بها ليست أكثر من عبث.

وفي كل الأحوال، الحمد لله أنه لدي هذه الحقيبة، فكثيرون حملوا أمتعتهم بأكياس أو بشراشف، وهناك الكثيرون ممن لم يجدوا أمتعة، أما الأغلبية منهم فقد حملتهم أمتعتهم، لا تسأليني كيف ولكن هذا ما جرى؛ فالأكياس لنقل الجثث والشراشف للأكفان، والعويل قد اختفى حيث أصبح من تكاليف الموت الزائدة، فلماذا هدر الطاقة؟ ولماذا نُتعب حناجرنا بالبكاء؟ أليست حناجرنا هذه نفسها التي هتفنا بها للحرية يوماً ما فأصبحت سبباً لموتنا؟ هل عليها أي، حناجرنا، أن ترتكب الحماقة نفسها مرتين. فالحماقة الأولى عند الصراخ بالحرية... حرية.... حرية حتى الـ ....؟! الـ ماذا؟ صدقيني إني أحك رأسي الآن حيث لا أعرف حتى متى أو لماذا بقيت هذه الحناجر تصرخ، أما الثانية فحين صارت ترتفع بالعويل، يا للحماقات التي تتكرر ولا تنتهي! إياك أن تحسبي أني أدعوك أنت وإخوتي وأهلي والجيران وأهل مدينتي الغالية وبالطبع أنا للندم؟ لا أبداً، كل ما في الأمر هو أن الصراخ هو أول ما يفعله الإنسان بعد الولادة، وفي التحليل العلمي فإن الصرخة تلك هي لاستنشاق الهواء، وإن الطفل الذي يعجز عن الاستنشاق سيكون معاقاً ولن تكتب له الحياة، أتعتقدين أن لا إرادية الاستنشاق عبر الصرخة الأولى هي نفسها التي دفعت الجميع للصراخ رغبة في الاستنشاق؟ الله كم أصبح الهواء قليلاً وشحيحاً هذه الأيام!

لا علينا، أعرف أني أرتكب حماقة وقلة أدب، فهذه أول رسالة

أرسلها إليك منذ اتصالي اليتيم الذي حدثتك عبره منذ ثمانية أشهر، نعم منذ ثمانية أشهر بكل لياليها الحالكة الصعبة الطويلة الباردة والحارة يا حبيبتي، كان الاتصال مقتضباً بحجم هذا الوطن، يومئذ وأنا خائف وشاعر بفزع الدنيا كلها قلت لك كلمتين صغيرتين:

أنا بخير، وبعدها أغلقتُ السماعة وأنهيت الاتصال دون حتى أن يتسنى لك أن تسأليني أي سؤال. لم يكن هناك من الوقت لتعرفي أين كان زوجك وحبيبك؟ وأين ذهب؟ وكيف يمكن أن يعود، لا أدري يومئذ كيف فعلت ذلك ولا أدري كيف خيل إلي أن أغامر بك وبرزان، رزان؟ نسيت أن أسألك هل قمت بالسلامة يا حبيبتي وأنجبت الطفلة التي كنا ننتظرها؟ أتذكرين؟ لقد اتفقنا أن نسميها رزان، ولقد أخبرتني أنك حامل في ذلك اليوم نفسه الذي اشترينا الحقيبة الجلدية البنية ذات الجيبين فقط، واحد صغير في أعلى الحقيبة وواحد كبير لوضع الأمتعة. وأنا المقاتل لا أملك أي قدرة على مقاومة دلعك وخصوصاً قولك لي:

سيكون لدينا طفلة رائعة تشبه أمها وضحكت تلك الضحكة التي ملأت سوق الخجا الدمشقي وجعلت الناس يلتفتون إلى هذه المرأة التي خدشت الحياء العام، ولكن يومئذ سامحتك ليس من أجل رزان فقط ولكن لأني، باختصار، لا أملك أية قدرة على أن لا أسامحك، يفترض أن عمرها الآن ستة أشهر، أنا متأكد أن كل من سيقرأ هذه الرسالة المجنونة سيكون على أهبة الاستعداد أن يضحك ويضحك

ويضحك حتى يستلقي على ظهره ويرفع رجليه إلى السماء ويضحك ويضحك، فكيف لرجل في القرن الواحد والعشرين لا يعرف شيئاً عن زوجته أو ابنته التي في بطن أمها وهما يعيشان في البلد نفسه، البلد؟ عفواً ما تبقى من هذا البلد، ولكن ما سيضحكه أكثر هو إيماني المطلق بأنها بنت وأنك أسميتها رزاااان، ماذا لو جاء ولد واستغل أبوك في غيابي الموقف وقرر أن يسميه على اسمه (حفيظ)؟ لا، لا، لا، لا يمكن أن تفعليها وتفعلي بي هذا، فأنا أريد لولدنا اسماً سينمائياً، ماذا تقترحين؟ لنقل مثلاً..... لا أدري سمّيه ما شئت، فالمهم أن يكون شبهك أيضاً، فأنا لا أريد لابني أن يكون شبيهاً بي، شبيهاً بأبيه الذي تركه ذات يوم ورحل.

أنا مدرك تماماً بل متيقن حجم حبك لي، لذلك أنا أكتب لك، فأنت لست زوجتي فقط وليس ما يربطني بك علاقة الزوجية المقدسة وحسب وأوراق ممهورة بختم المحكمة الرسمي، ولا يربط كلينا عقد من ورقة والقليل من الحبر والزغاريد ورقصة يوم العرس وبعدها نكد في نكد، بل أنت حبيبتي وكل دنياي، وأنا أعلم حق العلم أنك تعلمين ذلك، وأنا على يقين كامل وقد يكون هذا الشيء الوحيد الذي بقي لي من يقين وهو حبك لي، ولعل دموعك الآن تنهمر على هذه الورقة كحبيبات الغيث، لطالما دموعك ألهمتني، وكيف لا تلهمني وقد تساقطت من عينيك اللتين تملآن الأرض حبوراً.

آسف أيتها الغالية، فلقد أدركت أني استرسلت كثيراً وأن لديك

الكثير بل أكثر من الكثير من الأسئلة التي يجب عليَّ أن أجيبك عنها الآن على هذه الورقة، وعلى اعتبار أني بدأت من النهاية، أي من جنوني فسأكمل على المنوال نفسه، أولاً وقبل كل شيء آسف جداً على تأخري لك بالكتابة، فلم يكن من المعقول أن أغامر وأرسل أحداً ليحمل لك أي خبر عني، وأنا على علم بأن العسس في كل مكان، وحتى لو لم يكن هناك عسس يكفي شيء واحد فقط ليحدث وهو أن يتوافر لمن يريد المعلومات كرباج وكهرباء، وعند ذلك ستكون كل المعلومات متاحة. وثانياً، يجب، وبكل ما أوتيت أنا من ذكاء، إذا كان فعلاً لدي مثل ذلك أن أبعد أي شبهة لتواصلك معي، هههههه أتعلمين لماذا ضحكت؟ لقد قال لي أحد المحامين المهووسين بالقانون، إن المرأة لا تعاقب على إخفاء زوجها أو أي معلومات عنه، يومذاك ضحكت بما يكفي لأفقد خمسة كيلو غرامات من وزني أو ما تبقى من وزني إذ لم يعلم هذا المحامي المجنون أن هذه القواعد يعمل بها، وعليك أن تتخيليني الآن وأنا ألقي خطاباً، وأرفع صوتي قوياً وجياشاً وأنا أصرخ أمام الجماهير:

إذا تعرض أمن الوطن للخطر.

هههههه، نعم يا حبيبتي نعم، فأهم ما يمكن أن يفعله الإنسان هو حماية أمن الوطن، وماذا يبقى له إذا اختل أمن الوطن؟ الوطن الذي درسنا في مناهج الدراسة أنه أهم من الأب والأم وكل شيء في هذه الحياة، وبالطبع أهم منك ومن رزان، ولكن الآن نعم الآن سأقول لك

إن رائحة أبي ودمعة من أمي وبسمة منك ومن رزان تساوي الكون كله بما فيه من أوطان.

سامحيني، حقاً سامحيني، فحتى الآن لم تستفيدي مني بجملة مفيده واحدة، وأنا أحدثك عن الذكريات الماضية ولم أخبرك أي شيء عن المستقبل عفواً عن الحاضر، أو بدقة أكثر عما مر بي من أحداث.....

المهم أني لم أستطع أن أتواصل معك نهائياً، وللأمانة كان بإمكاني في الأيام الأولى بعد اتصالي ذلك، أن أعرف القليل عن أخبارك مع إمكانية التواصل معك، ولكن خشيت كما قلت لك التورط في أي شيء يؤدي بك وبنا جميعاً بطبيعة الحال إلى التهلكة، ولكن الآن بعد أن علمت أن مدينتنا كلها غادرت إلى المخيم الشمالي، وعلى اعتبار أنك أنت ورزان وأمي وأبي من مدينتي، وبالتالي من الطبيعي أن تكونوا قد صرتم في المخيم، أصبح بإمكاني جداً أن أرسل كل هذه الرسالة لكن وللأمانة أيضاً هناك سبب آخر لمراسلتك سأخبرك به من خلال أسطر الرسالة هذه نفسها......

عليَّ الآن وبعد أن كتبت لك ما كتبت أن أخبرك أنني أصبحت بصحة جيدة؛ فمنذ ثلاثة أشهر أصبت بثلاث رصاصات، واحدة في البطن واثنتين في كتفي اليمنى، لكن والحمد لله خرجت من هذه المحنة سالماً، ولا أخفي عنك سراً أنني متعجب من سر خروجي. ففي تلك الليلة تعرضت سيارتنا لكمين محكم، ومن الواضح أن أحد عناصرنا

كان مخترقاً من قبل الجهة المعادية، وإلا كيف عرفوا بشكل دقيق عن سيرنا؟ وطريقنا؟ وحتى سياراتنا التي كانت مموهة بشكل جيد؟ في كل الأحوال أينما أدرت ظهرك ستجدين يهوذا الإسخريوطي. في تلك الليلة كان المطر شديداً والضباب يملأ المكان وهذا شيء آخر يرجّح اقتناعي بأن واشياً وشى بنا، حوصرنا من كل الأمكنة، وكانت النار أكثر غزارة من المطر نفسه. ما أصعب القتال الأعمى يا حبيبتي، في أول المعركة سقط عبود، وهو شاب شهم صغير السن وهو بصراحة سائقي الخاص، نعم... نعم.. لا تهزي برأسك فقد أصبح لدي سيارة خاصة بي، صحيح أني لم أشترها من راتبي ولكنها مستحقة لي إذ كسبناها في إحدى المعارك الضارية مع العدو، كان يتباهى بها قائد الوحدة المعادية في قلب المدينة، كان يلف شاربه الطويل دائماً ويحاول أن يظهر بمظهر الدنجوان، أين هو الآن ليتباهى فقد أصبح في العالم الآخر، عليه لعنات الله، لا بد أنه الآن يشوى بنار الجحيم التي تليق بظالم مثله، ولكن أليس على الطرف الآخر الآن من يكتب مثل هذه الرسالة لزوجته ويصفني بالفكرة نفسها، أني سألقى بالجحيم التي أستحق؟ أعتقد أننا وضعنا أنفسنا مكان حارس الجحيم وأصبحنا نقسم الناس إلى فسطاطين، أحدهما في الجحيم وهو الذي لا يروقنا وآخرون في النعيم وبالطبع هؤلاء الذين (نحن)، في كل الأحوال لولا يقيني أني على حق، وأنني أسير في طريق الخير لقلت إني سأراه في العالم الآخر وأصيح به شامتاً:

هااااااا أرأيت نهايتك؟ ولكن لا بد أني سأكون في الجنة وهو في الجحيم لأنني أخذت في هذه الدنيا من الجحيم ما يكفي، ألا تعتقدين ذلك؟ المهم سقط عبود شهيداً وسقط ثلاثة من المقاتلين الذين كانوا معنا في القافلة، لا تسأليني كيف خرجنا، كان لطفاً إلهياً، إذ كيف نجونا ونحن مصابون جميعنا وقتل منا أربعة بمن فيهم سائقي ولم نطلق أيّة رصاصة ونجونا، أرأيت أن الله معنا؟

عبود رحمة الله عليه كان شاباً ظريفاً، يحبني بشكل جنوني، بصراحة علي أن أقول لك إنه فعل كل شيء لإنقاذي، إذ إنه أصر على متابعة المسير وعدم التوقف للكمين فتلقى الرصاصات الأولى في صدره وأصابت إحداها قلبه فخرّ شهيداً، لقد تجاوز الكمين بسبب تمسكه بالمقود ودوسه آلة السرعة بأقصى ما يستطيع فاستطعنا تجاوز الكمين والقفز من السيارة، وساعدنا الضباب والمطر حيث لا تجرؤ القوة المعادية على اللحاق بنا ونجونا ولله الحمد، الرحمة على عبود. منذ تلك الحادثة وأنا في الفراش حتى ولله الحمد تعافيت وأصبحت الآن قادراً على حمل السلاح من جديد، ولكن، بصراحة، أصبح سلاحي ثقيلاً عليَّ، كنت أحس بأنه أخف من يدي، ما الذي جرى؟ سأخبرك بكل شيء فلا بد أن تجدي جواباً لي وتشرحي لي هذا السر العجيب.

أعلم أن الأسئلة الآن أصبحت أكثر بكثير لديك، وأعلم أنك تتمنين بكل صدق أن تكوني بقربي لتشاركيني في مأساتي فأنا عالم

تماماً بشعور المسؤولية لديك، ولكن كما قلت سابقاً أنا أفعل كل شيء لتكونوا بخير جميعكم.

صحيح قبل أن أكمل، كيف حال أمي وأبي؟ لا بد أن غيابي ساهم في جعل علاقتكم أكثر انسجاماً، حبيبتي أنت العاقلة كما كنت أقول لك دائماً تحمليهما.

المهم، سأحدثك الآن عن مكان إقامتي، فأنا أعيش بقرية شمالية بمحاذاة الدولة الجارة، أو أبعد من الحدود بشكل أو بآخر. أنت تعلمين أن الحدود ليست تحت سيطرتنا إلا من أربعة أيام فقط، لا بد أنك تتابعين الأخبار، قالوا لي إن المخيم لا ينقصه شيء وهذا ما جعلني مطمئناً أكثر، قريباً سترينني بقربك لا تخافي يا حبيبتي، أنا دائماً أقول لك لن يفرقنا شيء إلا الموت وها أنا والحمد لله بخير وسأكون معك، أعدك، هل ما زلت تصدقين وعودي؟.

القرية بسيطة وأهلها طيبون جداً، فقراء، وأنت تعلمين الفقراء هم أكرم أهل الأرض ولولا عدم قدرتهم على زرع شيء أو بشكل أدق العسكر الذي يقوم بحرق محاصيلهم بشكل دائم وقتل مواشيهم لكانوا أعطوني الكثير من الخيرات التي لديهم، ولكن منذ أن وصلت إليهم منذ خمسة أشهر وهم يعتبرونني واحداً منهم ينظرون إلي نظرة البطل المخلص، أتعلمين؟ هي أمانة كبيرة، فبعدما قامت القوات المعادية بحرق محاصيلهم وقتل مواشيهم رأوا في بندقيتي خلاصهم وقد انضم إلي الكثير من الشباب وعلى رأسهم عبود رحمة الله عليه.......

نسيت أن أقول لك إن عبود كان وسيماً جداً، أشبه بسمرته وطوله وشعره الأسود بأبطال الأفلام الهندية، ولكنه كان يصر على إطلاق شاربه بشكل مبالغ فيه ولكنه كان يعتني به بشكل مفرط، وكلما قلت له إن عليه أن يخفّف من غلوائه بالشارب كان يقول لي:

سيدي سامحني أطيعك في كل شيء إلا في شاربي.

سبحان الله، أصبح شاربه علامة تجارية إذا صح التعبير، فقليلون من يعرفون اسمه الحقيقي (عبد الرحمن الأيوبي)؛ فجميع الناس يطلقون عليه اسم عبود أبو الشوارب، عليَّ أيضاً أن أخبرك أن عبود كان من أوائل من حملوا السلاح في هذه المنطقة من البلاد، وقبل أن يحمل السلاح زج به في السجن عدة مرات، وبصراحة في المرة الأخيرة أهانوا شاربه فقرر أن لا يلقى القبض عليه نهائياً وهو حي مرة أخرى، فماذا لو حلقوا شاربه؟ كان متأكداً أنه سيخسر كل شيء لو حلقوه له.

المهم أن معظم أهالي القرية الآن قد غادروا إلى الدولة الجارة ولم يبق فيها إلا المقاتلون وبعض النساء اللواتي هن نساء المقاتلين، أصبح كل شيء أشبه بثكنة، ثكنة للموت والحزن.

لقد تصالح الكثيرون مع الموت، وأصبح الموتى يشيعون موتاهم، والجميع هنا لديه يقين بأنه واقف على دور الموت لا أكثر، ما إن يصل إلى شباك القدر حتى يقطع تذكرته ويمضي، ما أفظع أن تصبح أمنية آلاف الشباب هي الموت بدل التفكير في الحياة، صحيح أننا سنذهب إلى الجنة وأن الجنة أجمل وفيها كل ما تعرفين من الخيرات

والمتع، ولكن ألا يمكننا أن نحصل على متع الدنيا وندخل الجنة؟ بالتأكيد يمكننا ولكن ليس في هذه البلاد التي تعطلت فيها سبل الحياة لدرجة أصبح طريق الجنة الوحيد هو أن تموت بيد عدوك، وما أكثر الذين ماتوا يا حبيبتي لكن الكارثة عندما تختلط عليك الأمور ويصبح لديك أكثر من عدو أو تصبحين على غير يقين بهوية عدوك الحقيقي.

أرجو أن لا تكوني قد شعرت بالسأم والملل من كل تلك التفاصيل التي كتبتها لك، ولكنني بصراحة مشتاق جداً إليك وإلى حديثنا وما زلت أستذكر أيام خطبتنا وجلساتنا الطويلة وأنت تركزين في كل شيء ولا أخفي عنك قد أنزعج من تدخلك في كل التفاصيل ولكن ما عليَّ أن أفعل، الحب هو الحب يجعلنا نحتمل، فلولا الحب أكنت قد صبرتِ حتى الآن؟.

أتذكرين لحظات تعارفنا الأول؟ اندهاشنا البسيط؟ مفكرات الدروس التي كنا نتبادلها قبل فحص الثالث الثانوي باستحياء؟ أتذكرين عندما دعوتك أول مرة إلى مقصف المدرسة لكي نتناول كأساً من النسكافيه؟ كنا أبرياء كهذا الوطن، فض الزمان بكارتنا كما فض شياطين الأرض بكارة هذا الوطن المسكين، حقيقة كلما أشيح بنظري وأشاهد ما حل بنا وبهذا البلد الجميل أفكر وأسأل:

ألم نفعل نحن بأنفسنا هذا؟ حقيقة نعم، يبدو لي في لحظة التجلي هذه أننا فعلنا هذا بأنفسنا، بنينا وطننا قلعة من تراب على شاطئ الحلم ثم هدمناه بموج أحقادنا، نحن الذين لم نعرف أن نعيش معاً فقررنا

أن نموت جميعنا، الحمقى الذين اجتروا كل قاذورات التاريخ ليقتلوا أنفسهم فقط لن يؤلمهم ضميرهم أبداً، أيُّ حمقى نحن.

المهم، قبل أن أصل إلى هذه القرية كنت قد وصلت إلى قرية الريحان الشرقية، لا بد أنك تعرفينها، هذه القرية القريبة من مكان خدمتي في الجيش سابقاً، كان هذا في الوقت الذي اتصلت بك ذلك الاتصال اليتيم، مكثت في تلك القرية شهراً كاملاً، لأن الطريق كان مغلقاً ولا يمكنني أبداً الحركة، فبعد أن غادرت موقعي هائماً على وجهي، لم أجد إلا هذه القرية لتؤويني. بصراحة كان شهراً قاسياً، كنت أرى الموت في كل زاوية وكل ركن وكل شجرة وعصفور، كم كتبنا شعراً للعصافير فكيف الآن نرى موتنا فيها، مكثت شهراً كاملاً في زريبة للبقر، أعتذر لا بد أن شعورك قد انخدش الآن، ولكن لا تخافي، تلك النجوم التي كنت تحلمين أن تلامسها كتفاي في السماء كنت قد نزعتها قبل الدخول إلى الزريبة، فكيف يمكنني تحمل أن أجلس أو بشكل دقيق أن أنام بين روث البقر والنجوم على كتفي؟ إهانة كبيرة أليس كذلك؟ في تلك الحقبة الطويلة جداً من المكوث المتواصل في الزريبة كان يتابع شأني اليومي خالتي أم دياب، لا يمكنني أن أعبر لك عن مقدار امتناني لها، كانت تبكي كلما رأتني نائماً فوق القش وقد دسست أنفي بين لوحي الخشب اللذين يشكلان جزءاً من جدار الزريبة لكي أستنشق الهواء من الخارج، وتربت كتفي وتقول لي:

(بتهون يا إمي بتهون).

آه يا خالتي أم دياب راح كل شي وما هانت، هكذا كنت أجيبها.

كانت خالتي أم دياب حريصة كل الحرص أن آكل وجباتي الثلاث كاملة، الفطور والغداء والعشاء، لقد زاد وزني كثيراً وخصوصاً أني بعد حوالى الخمسة عشر يوماً اعتدت الرائحة فلم أعد أدس أنفي بين الخشب، لقد تأقلمت بالشكل الكامل مع تلك الرائحة....

أعتذر، لقد اضطررت أن أتوقف قليلاً عن الكتابة، فقد سقطت قذيفة في فناء البيت الذي أقطنه، وأنا حزين جداً الآن، فقد قتلت الحمراء، صحيح كيف لم أتذكر أن أخبرك أول شيء أني اقتنيت فرساً رائعة اسمها الحمراء، كانت لشاب رائع اسمه سرمد، قتل في ظروف غامضة، حيث أطلقت عليه رصاصة من الخلف عن قرب وكأنه أعدم إعداماً ورميت جثته على مدخل القرية، الناس هنا يتهامسون أنه قتل في قضية تتعلق بالشرف ولكن سرمداً لم يكن من هذا النوع، حيث كان مهووساً بالخيل حتى آخر نفس. ملعونة هي الحرب التي لا يعرف القاتل لماذا قتل والمقتول فيم قتل، ملعونة تلك الحرب التي تصبح البندقية مالكتنا ولسنا نحن مالكيها، ملعونة تلك الحرب التي نقف أمام صنمها باكين متضرعين أن تتوقف عن ابتلاع فلذات أكبادنا ولكن ذلك الصنم لا يستمع، سرمد الشاب الذكي الرائع، الذي يعشق الخيل أكثر من عشيرته، فجأة مات، أو لكي أكون دقيقاً، فجأة تبخر، قتل، نالته أياد غادرة لكثرتها صار قطعها يستوجب قطع أيدي الناس كلهم، ألسنا كلنا ارتكبنا خيانة ما بحق وطننا وغدرناه؟.

سقطت الحمراء الآن يا حبيبتي بقذيفة عمياء، لو سمع مطلق القذيفة صهيلها لما تجرأ على فعل ذلك، أتعلمين أني أستيقظ كل يوم باكراً جداً لأعلف الحمراء وأضع لها الماء، الله ما أجملها! بعد أن وجدوا جثة سرمد خشيت عائلته من استمرار الانتقام لشرف ذلك الشخص المجهول، وأن يجدوا كل يوم جثة من عائلته ملقاة بالطريقة البشعة نفسها، فغادروا القرية إلى تلك الدولة الجارة وتركوا الحمراء في عهدتي. لقد أصبحت صديقتي عندما عز الأصدقاء والأحباب، وعندما أصبح الشك هو القانون والثقة نادرة كندرة الحياة في هذه الأنحاء، أليس غريباً أن أعبر لك عن حزني الشديد على سقوط الحمراء بقذيفة رغم أنه سقط أربعة شهداء حتى الآن خلال وقت كتابة هذه الرسالة فقط؟ قد يكون لسقوط الفرس وقع أكبر من وقع سقوط ملك.

استمرت الخالة أم دياب في تقديم واجب الضيافة لي الذي استمر شهراً، بيض وجبن وحليب ولبنة وزبدة ومربى وزيتون صباحاً، طبخ من المنزل عند الغداء عادة ما يكون برغلاً أو عدساً مع قليل من اللحم، أنت تعرفين أن اللحم صار رفاهية الرفاهية لا يأكله إلا اللصوص الكبار وأذنابهم من اللصوص الصغار ولو لم أكن ضيفاً مميزاً لما عشت هذا الدلال الزائد وذقت اللحم، هكذا كانت خالتي أم دياب مستعدة أن تقطع من لحمها لتطعمني، كان العشاء عادة ما يجتمع به مركبات الفطور والغداء، كل هذا الطعام من خير البيت والبقرات التي عشت بين روثها والبستان المحيط بالدار، وحقيقة فكرت كثيراً بعد مجاورتي

للبقر طوال تلك الفترة، كم يقدم لنا البقر من الخير ونحن نحتقره؟، حتى وصلت بالبقر أن قدم لي الأمان وخبأني في حظيرته التي بقيت أشكو منها حتى كتابة هذه السطور، لكن وبعد ثلاثة أيام من مكوثي في الزريبة، طلبت من الخالة إن كانت تستطيع أن تجلب لي بعض الكتب، وفعلاً أصبحت تناولني بعض الكتب الدينية من مكتبة ولدها تيسير، مممممم تيسير، يبدو أنه عليَّ أن أخبرك عن تيسير، أول شيء لاحظته أن الكتب تجليدها قديم وأنها من نسخة التجليد الأسود الذي كان سائداً منذ خمسين عاماً تقريباً؛ معظم الكتب كانت أدبية أو دينية، نجيب الكيلاني ومصطفى السباعي ومحمد قطب وحقيقة لم أقرأ لهم من قبل، وعلى اعتبار أن الشعور الديني يزداد في المحن والملمات فقد شعرت أن هذه الكتب كانت في وقتها المناسب، ولكن ما أدهشني أنه وكلما انتهيت من قراءة كتاب كانت الخالة تتناوله مني وتعطيني غيره وتبكي. بصراحة في البداية شعرت أنها تبكي رثاء لحالي ولما أصبحت به الثقافة من حال حيث أنها أصبحت تقرأ بين روث البقر، استمرت الخالة في حالتها هذه عدة أيام، حيث كنت كل يوم أو اثنين أنهي كتاباً، كنت أحاول أن أتماهى مع الكتب حتى أصبح شخصاً آخر وأنسى كل ما حل بي، بقيت متجاهلاً دموعها حتى لم أعد أستطيع لذلك سبيلاً، وفي نهاية الأمر قمت بتجميع كل ما لدي من شجاعة وسألتها:

ماذا يبكيك يا خالة؟

وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال لتجيب:

كان تيسير يقرأ كثيراً مثلك.

بصراحة ازدادت دموعها ذرفاً، وتساقطت دمعاتها على خدها القمحي المتجعد، كان هناك خيط من الشمس ينساب من بين الألواح الخشبية يوضح الشامة السوداء على خدها وكأن كسوفاً للشمس قد حدث ويظهر وشماً بدوياً منقطاً بثلاث نقاط زرقاء أسفل ذقنها كان الزمن قد أخفاها ما يستطيع ولكن حزناً غائراً في القلب كهذا الوشم جعل الوشم يظهر فجأة واضحاً وجلياً دون مقدمات.

تلعثمتُ وارتبكتُ وندمتُ صراحة لأني سألتها هذا السؤال، فلأول مرة أشعر أن لباسها المزركش بالورود الحمراء قد أصبح أدكن وأن شالها الأبيض انقلب فجأة أسود يبكي وينوح، كم أكره النوح يا حبيبتي، تعرفين هذا الشيء أليس كذلك؟ بعد ذلك اقتربت مني أسندت يدها إلى كتفي لكي تتمكن من الجلوس، جلست بقربي على ما تبقى من القش الذي كنت أضع عليه فراشي، لم تتكلم ولم أستحثها على الكلام، ظلت تبكي ولكن ليس بكاء جياشاً، كان بكاء تأمل، لأول مرة في حياتي أشعر أن بكاء حقيقياً يخرج من قلب الروح، كان نزفاً من داخلها، كان استئصال ورم الذاكرة، أو البكاء على ثمرة سقطت قبل أوانها، مرَّت بضع دقائق من الانتظار الطويل ما كنت أعرف الرغبة الحقيقية التي انتابتني، مزيج من الفضول والخوف، فضول كي أعرف قصتها التي تدفعها للبكاء مع كل كتاب والخوف من أن قصة تبدأ بالبكاء فماذا يمكن أن تكون نهايتها؟ بعد مرور القليل من الوقت قالت:

كان مثلك، وسيماً وبهي الطلعة، حاول والده كثيراً أن يرسله ليخدم في الجيش لكنه رفض، كان يريد أن يكون طبيباً، وفعلاً كان له ذلك، دخل الجامعة ليدرس الطب وكان مثلك كثير القراءة، وأنا لم أكن أعرف القراءة، يمضي نهاره بالدراسة وليله بالقراءة حتى جاء ذلك اليوم، وفجأة توقف الزمن في عينيها، خلت أن دموعها قد تحولت إلى حبيبات من الكريستال قد تحجرت على خديها، شردَتْ قليلاً ثم أدارت وجهها تنظر في أرجاء الزريبة كأنها تبحث عن شيء أضاعته ولكن لا تعلم أين ثم أضافت:

في ذلك اليوم دخلت دورية أمنية فجراً إلى المنزل واقتادوه من فراشه، كان في السنة الثانية بكلية الطب البشري، عدلت جلستي وأومأت برأسي دلالة أني أتابع بالشكل اللازم قصة مثل هذه، وحاولت قصارى جهدي أن تظهر علي ملامح الخشوع التي يحتاج إليها موقف يبدو أنه حزين ما يكفي لكي نخشع على أقل تقديرأمام دموع أم تبدأ أمامك الآن في هذه اللحظة ببسط كفنها، أليس فقدان الابن موتاً طويلاً لأمه؟ أضافت:

الرابعة فجراً والكهرباء مقطوعة، خُلع الباب الخارجي للدار وتوجهوا مباشرة إلى فراشه، كيف كانوا يعلمون مكان نومه، حتى إنهم لم يتأكدوا من أنه هو أم لا، كان لديهم يقين حتى من السرير الذي كان ينام عليه، طبعاً أنا لست مندهشة جداً، فمن الواضح أن قذراً كان يعرف البيت جيداً، كان يرافقهم حيث أحدهم كان ملثماً وهو من سبقهم إلى

الغرفة ودلَّهم عليه، نطقت الجملة الأخيرة وأتبعتها بآآآآه حارقة ثم استدارت فأصبح وجهها قبالة وجهي تماماً وقد تحول وجهها إلى مرآة للكره لإنسانة لا تعرف إلا الحب والعطاء ثم قالت:

أتمنى أن أعرفه، أن أقف أمام ذلك الملثم وقد أشيح اللثام عن وجهه، أريد أن أراه فقط لكي أقول له كلمة واحدة، لماذا؟ في تلك اللحظة يا حبيبتي أطرقت رأسي إلى الأرض، كيف يمكن أن يفعلها، ما أقذر ما يمكن أن يفعله الإنسان! ما أقذر أن يجتث الإنسان ابناً من أمه وأبيه! أو أن يجعل أماً تبكي على بنتها دون أن تدري عنها شيئاً، كيف يمكن لشخص أن يطعن أهله؟ أن يجتث منهم فلذة أكبادهم دون أن يرف له جفن، نظرت نحوها وكلي مرتبك ولا أعرف ما عليَّ قوله، فطلبت منها أن تكمل القصة بإيماءة من رأسي فأضافت:

رجوتهم يا ولدي، أشاحت بيدها يميناً ويساراً كمن يهش على غنمه، تحولت ملامحها إلى تأكيد على كل حرف من حروفها التي تنطق بها:

رجوتهم كان كبيرهم واقفاً خارج المنزل، خرجت إليه، قلت له أنا مستعدة للذهاب مكانه تخيل ذلك؟! قال لي اخرسي ودفعني فسقطت على الأرض، كان تيسير حينئذ عند باب السيارة يريدون إدخاله إليها، زحفت حتى قدمي كبيرهم قلت له: وهنا زادت دموعها دموعاً يا حبيبتي وأنا صرت أبكي وأبكي ولا أدري السبب فإني لم أشاهد تيسير سابقاً، ولكنني كنت على قيد الحياة بفضل خالتي أم دياب، أو لأنني لا

يمكن أن أكون حيادياً أمام دمع الأمهات، كيف لإنسان أن يكون حيادياً أمام دمع الأمهات وكيف يمكنه أن يكون قاسياً لدرجة أن لا يستجيب لرجاء أم؟، الله يا حبيبتي ما أقذر ما يمكن أن يفعله الإنسان ثم أكمَلت:

قلت له أرجوك إنه ضي عيني وإنه النور الذي أرى فيه عتمة الحياة أخبرني فقط ما القصة؟ مسحت دموعها فجأة بكفها وكأنها تذكرت شيئاً:

حينذاك يا ابني كنت أبكي على حذائه سحب حذاءه، نظر إلي بكل عنجهية وقال لي:

ولدك إرهابي خطير وأنت أسأت تربيته وستأخذين عقابك أنت على تربيته السيئة وهو على إرهابه، (إنت واطية وهو واطي)، ثم نزل إلي وهمس في أذني:

(رح يحترق قلبك متل مو أمثال ابنك بدن يحرقوا الوطن)، ثم ركب بسيارته ورحلوا، نعم يا ولدي رحلوا هكذا بكل بساطة رحلوا ومعهم تيسير ثم توقفت ونظرت إلى السماء أو لنقل إلى سقف الزريبة ولكنها تحاول أن تتوجه إلى السماء، نظرت إلى ذلك السقف الذي منذ اختفى تيسير أصبح كل عالمها ثم قالت:

يا رب واحد وثلاثون عاماً ألا تكفي لأعرف مصيره؟ يا رب كحّل عيني برؤية شهادة وفاته أقله قبل أن أموت.

لا يمكنني أن أشرح لك ما حل بي في ذلك اليوم العصيب وكم كان طويلاً وبارداً ذلك الليل، عندما تختزل آمالنا بشهادة وفاة

يا حبيبتي، بورقة بيضاء عليها بعض الخطوط ومكتوب بخط اليد (الاسم، وسبب الوفاة)، سبب الوفاة الذي عادة ما يكون (طبيعياً)... جلطة.... سكتة قلبية... لا يمكن أن يموت أحد في تلك الأماكن لأسباب تتعلق بالتعذيب مثلاً أو بالجوع أو بسوء الطالع والحظ، في بلادنا التي تحدث بها المعجزات، كل المساجين يموتون موتاً طبيعياً والمنتحرون ينتحرون بست رصاصات في الرأس.

عرفت بعدها أن أم دياب قامت بإخفاء مكتبة تيسير في البئر العربية التي في حوش دارهم، وأنها خبَّأت الكتب بطريقة بحيث تكون مرتفعة فوق الماء ولا تصل إليها الرطوبة وأنها منذ بضع سنوات، عندما حل (الربيع) الديمقراطي على البلاد أخرجت الكتب وأعادت تصنيفها للزينة أمام الزوار لكي تُشهد العالم بأن ابنها لم يكن إرهابياً بل طالب طب مثقفاً. تخيلي لقد تعلمت أم دياب القراءة والكتابة كرمى لعين تيسير،حيث قالت لي إنها كيف ستستطيع الاهتمام بالمكتبة وتصنيفها إذا كانت عاجزة حتى عن قراءة العناوين؟ تعلمت أم دياب القراءة وحفظت المكتبة حتى جاء شخص مثلي ليقرأ منها، شهر كامل يا حبيبتي وأنا أنتقل من كتاب إلى كتاب، ولا أخفي عنك فقد كانت الخالة كل ثلاثة أيام تهيئ لي الحمّام لكي أستحم وقامت بإعطائي ملابس، تخيلي أن بعض ملابس النوم كانت لتيسير قالت لي:

الغالي للغالي.

لا أعرف ما حل بخالتي أم دياب الآن وكيف أصبحت، قالت لي

قبل أن أغادر منزلها أو زريبة منزلها سأدعو لك مع تيسير لا تخف الله موجود.

ما إن تنتهي هذه الحرب اللعينة حتى أذهب إليها وأقبل يدها ورجلها وأقول لها شكراً، شكراً يا خالة على كل شيء، سترافقينني يا حبيبتي أليس كذلك؟.

بعد مضي شهر تقريباً دخلت عليَّ الخالة أم دياب ليلاً وكانت ملامحها مسكونة باللهفة والخوف، فهمت منها أن حملة مداهمات تشن بالمنطقة، وأنه عليَّ المغادرة فوراً وأن شباباً من القرية قد جهزوا لي وسيلة السفر وأمَّنوا الطريق وفهمت حينئذ من صوتها، أن الطريق سيكون خطراً ولكنه أكثر أمناً من البقاء في الزريبة، كانت السلطات تقتحم القرية من كل جانب وتفتش في كل مكان في إثر فرار ثلاثة من جنودها عند حاجز قريب، فتك العسكر بالدجاج والأغنام والبقر، ولا أخفي عنك أني خائف جداً على مصير بقرات أم دياب. فهمت من الخالة أن العسكر في حالة هيجان غير إنساني، فهم يقتحمون البيوت يعتقلون كل الذكور ويكسرون كل شيء يظهر أمامهم، وحجة قائدهم أنهم يبحثون عن متورطين سهلوا للجنود الهرب ولكن من الواضح أن كل الناس في المحيط متورطون بشكل أو بآخر وفق عرف العسكر، بصراحة صمت لأربعين عاماً على الظلم ألا يجعلك فعلاً متورطاً؟.

خرجتُ تحت عتمة الليل ووجدت شابين من القرية ينتظرانني ومعهم ثلاث بغلات واحدة لي ولكل واحد منهما بغلة، هذه البغلات

ذكية تستخدم في التهريب وتعرف طريقها مباشرة من دون دليل، وما على الإنسان إلا أن يركب فوقها وهي تسير وعين الله تحرسها، سارت بنا البغال في طريق التهريب المعهود من القرية إلى الدولة المجاورة ولكن فهمت من الشابين أني سأنتقل إلى قرية أكثر أمناً لا أكثر، لأنه باختصار لا يوجد لي أحد في الدولة المجاورة، ولأني أنا شخصياً لا أفكر في الخروج خارج الوطن، كيف سأخرج وأنت لست معي؟ ستكون خيانة أليس كذلك؟

كلنا نرتكب الخيانات، ولكن بأشكال كثيرة، معظمها لم تذكر في الكتب، ولم تأت أفلام العبر على ذكرها، كلنا نرتكب دائماً تلك الخيانة الأقرب إلى التبرير.

سارت البغال بنا في طريق صخري ومتعرج، وكان الليل حالكاً لا ضوء للقمر ولم أعد أشعر بالنجوم، يمنع إصدار أي صوت أو حتى إشعال أي ضوء، بصيص السيجارة كان كافياً لأن يرانا القناص ونكون في قبضة العسكر أو روحنا بين يدي ملاك الموت، ست ساعات متواصلة من السير، البغل ذلك المخلوق العظيم، أنا متأكد أن أعتى وأقوى السيارات لا تستطيع تجاوز ذلك المعبر الجبلي المتعرج والوعر، بعد بضع ساعات غفوت، ذكي ذلك الذي قال:

النوم سلطان، والله إنه سلطان.

توقفت البغلات بنا أمام البيت الحجري لأبي صخر. أبو صخر

الرجل (الزكرت) متوسط القامة والبنية ولكن يقال إنه لم يعرف الخوف يوماً؛ أبو صخر من ذلك النوع الذي يقال إنه قتل السبع يوماً، سمرته الشديدة أعطته جاذبية تضاف إلى سمعته كشجاع لا يجاريه أحد في شجاعته، وكما يقال (الجود يفقر والإقدام قتال) وفعلاً أبو صخر كان كريماً ومقداماً فكيف تتوقعين نهايته؟، المهم أوصلتني البغال إلى حيث يجب أن أصل، لم أحاول أن أسأل الشابين عن أسميهما ولكن ملامحهما كانت مألوفة، وكان همهما الوحيد أن أصل سالماً وأن لا أصاب بمكروه، وكيف يمكنهما تقبل أن يصاب (البطل) بمكروه؟ (البطل) الذي رفض قتل شعبه فأصبح طريداً شريداً ملاحقاً في كل زاوية، ما أصعب الزمن الذي لا تأمن على نفسك إلا إن كنت قاتلاً أو...... قتيلاً، (البطل) الذي أصبح تداريه الناس بريف جفونها، كان الاقتراب منه وحده تهمة قد تودي بحياتك فكيف مساعدته على الهرب؟ البطولة في ذاتها مفهوم غريب بالنسبة إلي، حتى الآن لا أستطيع الاقتناع بالبطولة إلا بالأفلام السينمائية أو حلقات الدراما التلفزيونية ولكن أليست حياتنا مسرحية بطريقة أو بأخرى؟ فصولاً تلو فصول؟ ولكن أين هم الأبطال؟ أهم أولئك الذين تشخص إليهم العيون في كل حين؟ في مرة من المرات قلت لأبي صخر:

يا أخي لماذا تشعرونني بأنني أهم منكم، أرجوكم كفوا عن ذلك، أتعلمين ما كان جوابه؟.

قال:

سيدي الضابط، ليس من السهل أن تلتقي رجلاً مستعداً للموت فقط لأنه رفض أن يقتلك، أعتقد أنه كان حكيماً أيضاً.

لا بد أنني أطلت عليك الكلام ولكن بالتأكيد أنك لم تصابي بالملل، فكل هذه التفاصيل هي من الأمور التي يستهويك معرفتها بل تسعين دائماً جاهدة لتسمعيها وتتفحصي كل تفصيل منها، ألست أنت عاشقة التفاصيل؟ هكذا كنت تقولين لي؟ ولكن أنا متأكد أنك ما زلت تنتظرين الحدث الأكبر، الحدث الجلل، الحدث الذي أوصلني إلى ما أوصلني إليه، وكيف أنني غادرت مكان خدمتي تاركاً حلمنا القديم وراء ظهري (النجوم)، أتذكرين كتفيّ كيف كانتا ترتفعان فعلاً نحو النجوم لتلبساها؟ أتذكرين كيف كنتِ كلما رأيت النجمة على كتفي انخفضتِ قليلاً ونظرت منها نحو الأعلى وضحكت وقلت لي:

وأخيراً؟

وهذا أخيراً يا ضي عيني من الجحيم إلى الجحيم، وأخيراً انتقل حبيبك من ضفة للموت إلى ضفة للموت، هو فقط يحاول أن يختار الموت الأكثر قناعة له.

كانت ليلة ماطرة تلك، وقد أوكلت إلي مهمة واضحة وحاسمة وهي حراسة الطريق السريع بين العاصمة والمدينة الشمالية، لا أستطيع أن أكذب عليك كما كنا نكذب على الناس، كانت تلك الليلة هادئة وكنت مناوباً على الحاجز الرئيسي الذي يغطي مدخل المدينة ويؤمِّن السيطرة المطلقة والرئيسية عليها، أنا أعرف أنه ليس من المنطقي

استخدام مصطلحات عسكرية في تلك الحقبة، لم يكن هناك سلاح ولم يكن هناك داعٍ للسلاح ولكن كيف لمن لا يرى إلا السلاح أن يرى بغير السلاح؟ كانت نهارات المدينة التي أخدم بها ملأى بالضجيج، تظاهرات تملأ الشوارع وهتافات وكنت كلما سمعت هتافاً زادت المسافة بيني وبين السماء ونجومها، زادت تلك المسافة جداً وكان عويل قائدي المباشر وسخطه ورغده وزبده يملأ اللاسلكي طوال الوقت ولا أوامر إلا أن حافظوا على هدوئكم، كنت بموجب المكان الذي أخدم فيه على احتكاك بمعظم أهالي المدينة وهم أهل كرم وضيافة يعاملونني كواحد منهم، وبصراحة كان من الطبيعي أن أكون واحداً منهم ألست واحداً منهم؟ بالله قولي لي؟ كان رأسي يؤلمني جداً من التفكير في تلك المرحلة، كان قائدي يصر أنهم كلاب وأن الكلب نهايته أحد احتمالين، إما برصاصة وإما دهساً بالسيارة، لم أستطع ولا مرة أن أشرح له أن الكلاب في العالم المتمدن تملك حصانة وأن من يضربها بالكف يذهب إلى السجن، حاولت مرة لكنه سخر وكدت أقاد إلى السجن لولا لطف الله، أصبحت الأيام التالية صعبة وتمر ثقيلة، وأصبحت علاقتي سيئة مع كثيرين من أهالي المدينة بسبب تصرفات قائدي ونزقه، كان عاجزاً عن سماع الناس. لقد أمضيت ليالي كثيرة وأنا أفكر كيف يمكن لإنسان أن يصم آذانه إلى هذه الدرجة؟ أم أنه صمم العقل؟ لا بد أنه كذلك، مداهمات ليلية للبيوت والدخول إلى حجر النساء من دون إذن، ضرب الشبان في الشوارع وسحلهم نحو مراكز

الاعتقال السرية، محاصرة المدينة أياماً فيمنع دخول الطحين أو المواد الغذائية أو الوقود. لقد أصبحت حياتي جحيماً، فلست ممن يديرون ظهرهم لنظرات الناس ورأيهم بي، ولست ممن لا يفكر في ما يحدث حوله ورغم أني أؤمن بالنظام والانضباط، ولكن أيضاً أؤمن بدوري الذي اخترته لنفسي أو أقله الذي اخترناه معاً أنا وأنت في أيام حبنا قبل الخطبة. لقد اخترنا القامة الممشوقة والأكتاف التي تطال النجوم والنفس المحملقة في سماء لا تتلبد بالحقد أو الكراهية، أتذكرين؟ أتذكرين عندما احتضن كلانا الآخر ولعبتِ بشعر صدري ماذا كنت تقولين لي؟ وسيم هذا الصدر تليق به نياشين الدفاع عن البسطاء، كانوا بسطاء وأنقياء وكنت ضائعاً بين الانضباط، القوانين، النجوم وبين هؤلاء، حاولت في البداية أن أتكيف مع الواقع وأن أتذرع بأني يجب أن أطيع قسمي وأكون مخلصاً في أداء وظيفتي، فما تعرفه القيادة لا أعرفه أنا وفي تلك الفترة، أصبحت أتحدث معك كثيراً في الليل أتذكرين؟ كان صوتي متخرشاً وكنت تشعرين بذلك ولكني حينذاك تذرعت كثيراً بأسباب كثيرة واهية، علي الاعتراف الآن بأنني كذبت عليك كثيراً، لقد كانت روحي تتمزق بين النجوم وبين أصوات الناس.

بقيت هذه الحالة أشهراً حتى كان ذلك اليوم التعس من أيام عمري، جمعنا القائد جميعاً في باحة الثكنة الكبيرة التي كنا نجتمع فيها ونمارس الرياضة اليومية، تلك الساحة الترابية التي بمساحة ملعب لكرة القدم، جمعنا في تلك الليلة وكانت أوامره صارمة، وقف

بهامته الطويلة وفكه العريض ورأسه الأصلع كثيف الشارب، كان ببزته العسكرية الكاملة وقد حسبته لوهلة سيتلو علينا أوامر التوجه إلى الجبهة لتحرير أراضينا المحتلة منذ عقود، ولكن استرجعت نفسي عندما تذكرت أنه كان يسرق الديزل وبنزين السيارات العسكرية، كيف لضابط سارق أن يحرر أرضاً محتلة؟، بعد أن صمت الجميع وبعد أن توقف الجنود والضباط وصف الضباط وقفة الاستعداد الكامل بدأ يلقي كلمته على مسمع الجميع ومن دون مذياع:

أبنائي

ابتدأ حديثه بهذه الكلمة ولا أدري ما حل بي، بدأت أشعر بالدوار وشعرت بأن الدنيا كلها تدور بي وتدور بي وتدور بي وتغشّاني الليل، يوماً بارداً كان بل قارس البرودة وأنا أصبحت أشعر بالعري، لا أدري لماذا تهدت كتفاي حول جذعي وشعرت بأن هامتي انخفضت وأن أزرار بزتي تتساقط الزر تلو الزر، بدأت مشاعر العري المخزي تنتابني والبرد يأكلني.

أبنائي

لم يسبق له قط أن قال هذه الكلمة، عادة كان يردد وينعت العساكر بـ (يا حيوان أنت وهو)، (أيها الجرابيع أيها الـ...) الخ......... ضعي أية شتيمة شئت بعد (الـ) أما اليوم فيا أبنائي! شعور عجيب ومقرف ذلك الشعور بالنفاق، أكمل حديثه الذي ما إن أستمع إلى جملة أخرى منه حتى يزداد شعوري بالبرد ورغبة أكثر في القيء. في تلك

اللحظات بالذات شعرت بأن قراراً نهائياً يجب أن يتخذ وأن وجودي هنا في هذا المكان غير ممكن أبداً، بدأت وجوه أهالي المدينة تتقاطر أمام عيني كشريط فيديو مصور بالأبيض والأسود، المدرس حسام الذي كان يقتطع من مصروف جيبه وراتبه الضئيل ليشتري الزهور التي كانت ترمى من قبل التظاهرات على دبابات الجيش، كنت أعلم بذلك ولكن لم أخبر قائدي بتلك التهمة الخطيرة. أتعلمين ما يعني أن يرمي شخص زهرة على دبابة تسجنه؟ لقد حصلت صدقيني، المدرس حسام وزملاؤه فعلوها، أحمد التلميذ الذكي الذي كل يوم صباحاً يحرج والده بإصراره على تقبيلي، سماح طالبة الجامعة الجميلة التي كانت تحب زيداً وزيد يحبها ولكنهما لن يتزوجا لأن زيداً غير متعلم، يعتبرونه فرقاً أليس كذلك؟، الطبيبة هنود، فادي صاحب محل الدجاج الذي اعتقل لأنه قدم الماء يوماً للمتظاهرين،الحاجة أم فايز التي كانت تكتفي بالوقوف أمام باب دارها عندما تمر التظاهرة وتقول:

(الحمد لله شفت هي الشوفة قبل موتي).

كل الوجوه تتقاطر أمامي وأنا روحي تتكور على نفسها كالقنفذ، تكلم وتكلم وتكلم ولكني لم أعد أسمعه، أخيراً في الختام طلب من (أبنائه) أن يهيئوا أنفسهم للعمل الخطير القادم وهو اقتحام المدينة من كل المحاور، وتحسباً لأي (خلل أمني) سترافق (أبناءه) الدبابات، لم أعد أعرف ما عليَّ أن أفعل، فأنا لا بد سأكون رأس الحربة في هذا العمل الذي لا أستطيع أن أفكر فيه، كيف سأغزو مدينة أنا بالأصل أحرسها،

كيف لهذا الصدر الذي يجب أن يمتلئ بالنياشين عليه أن يكتسح بل أن يغرز مسننات نياشينه في صدور أهله، يا لها من ليلة عصيبة ستكون فاتحة لليلة أكثر حلكة وسواداً، كنت موقناً أن من بديهيات الحياة أن لكل فعل ردة فعل فماذا يمكن أن تكون ردة فعل الرصاصة؟ ألم يقولوا في الحروب لا تعرف إلا الرصاصة الأولى؟.

بعد انتهاء خطابه الخطير، وبعد أن توجه الجميع للاستعداد لم يكن أمامي أي مفر، كان هناك هنيهة من الوقت، يجب أن يُحسم كل شيء فإما هنا وإما هنا، إما أن أؤمن وإما أن أكفر، ما زالت كلماته تتناحر في ذهني، إرهابيون وعملاء ومندسون، وشعور القيء يزداد، إني أعرفهم، أعرفهم تماماً، أخيراً وبعد كل هذا الصراع ولأنه ليس لدي الكثير من الوقت، حزمت أمري نهائياً، رجعت إلى غرفتي وحزمت ما يمكن حزمه من أشيائي واتجهت نحو البوابة، لم يكن أمام الحرس خيار إلا أن يفتح لي الباب، فأنا ضابط وهو مجند لا أكثر، يخشى العسكري العقوبة فيفعل كل شيء. عادة هكذا تجري الأمور، الحقيبة البنية وبزتي العسكرية التي أرتديها ودفتر ذكرياتنا وقراري، هذه الأشياء التي كانت في حوزتي، سلكت الطريق الترابي أو الدرب الترابي إذا صح التعبير، تلحفت بالحلم ومشيت، مشيت ومشيت صوت الصراصير والخنافس وعواء كلاب بعيد وليل أسود حالك وأنفاسي تسبقني وبخار التعب أصبح يلامس وجهي دونما أن أراه، سمعت الصوت، نعم سمعت صوتاً خلفي، لا أدري إن كان هو ولا أدري إن كان خوفي هو ما

أسمعني هذا الصوت ولكن ما يهم أني سمعت، قلبي قفز من مكانه، عندما يوضع الإنسان بين خيارين، الموت أو الموت فليس أمامه إلا أن يختار الموت الأكثر شرفاً، ركضت، ركضت وركضت، أصبحت أرى الدنيا كلها وجهك، لا أدري كيف تذكرتك في تلك اللحظة المظلمة بالذات، غاب كل الظلام وأشرق وجهك وأصبحت هائماً في ملامحك الملائكية، عينيك، ثغرك وما تبقى لي وبي من لهفة لك، أركض كأن الأرض اختفت، وما زال صوته في أذني ولكن وجهك خفَّف عني، رغبتي بل حلمي برزان زاد من توقي، ركضت حتى تعب التعب مني.

لا أستطيع أن أحدد فعلاً المدة التي استغرقتها بالركض ولكن بالتأكيد كانت كبيرة، بعد ذلك استرحت قليلاً بجانب صخرة وقد تراءت لي بعض المنازل في الطريق، اقتربت واقتربت واقتربت حتى وصلت إلى أول بيت، يبدو صغيراً، غرفتان أو ثلاث، واجهته إسمنتية وهو من طبقة واحدة. قبل أن أصل وخلف الصخرة التي استرحت قربها، نزعت ملابسي العسكرية وارتديت البنطال الأسود والكنزة الصوف الخضراء وأبدلت حذائي، قلت لعلِّي أخفي حقيقتي ولكن كيف لي أن أخفي فزعي؟ كانت صبية صغيرة تقف أمام باب البيت الأول اقتربت حتى وصلت إلى قربها ورأتني.

الفصل الثاني

البحر من أمامكم والبحر من خلفكم

عندما يصبح الوطن بضع وريقات في دفتر اسمه (جواز السفر) ويصبح البيت زنزانة مظلمة يصبح كل شيء مباحاً حتى الغرق.

بصق بين رجليه، وحاول إخراج شيء كان عالقاً بين أسنانه، بصق مرة أخرى ثم أضاف بعد محاولات جاهدة ليطيل صبره:

أرجو أن تنتهيا من أسئلتكما بسرعة، لقد مللت منكما ومن كثرة أسئلتكما ألم ننتهِ؟

نظر حازم وتوفيق كل إلى الآخر وتبادلا نظرة حيرة متوترة، حاول حازم التبرير والتخفيف من ملل الرجل:

يا أخ مصباح، أنت تعرف أن المسألة مسألة حياة وموت ونحن فقط نحاول أن نتأكد من كل شيء ومن سلامتنا، وعفواً على الكلمة التي سأقولها وسلامة أموالنا لا أكثر.

أنتما تضيعان الوقت من دون طائل، مادام لديكما كل هذا الشك لماذا تضيعان وقتي ووقتيكما؟ ها؟ الميدان كبير انظرا، وحول وجهه إلى المكان متأملاً الميدان الكبير الواقع وسط عاصمة الدولة الجارة لبلدهما، تنتشر المطاعم على طرفي الطريق وحول ساحة الميدان وتنتشر المقاهي التي لوحاتها مكتوبة بالعربية والتركية والكردية والفارسية على الغالب، والتي تقدم الأطعمة على اختلاف أنواعها،

الكباب والخبز واللحم المشوي والشاورما التركية الشهيرة، وتنتشر أيضاً مكاتب السفر وحجوزات الطيران والمكاتب السياحية، ميدان كبير، مومسات وقـوادون، عابرو سبيل وعابرو حياة وباحثون عن الأمل، في الميادين الكبيرة تتيه النفس والروح بين الزحام وتتصادم الأحذية لتخفي تحت دبيبها سبل ودروب البشر واختلاف همومهم.

تدخل توفيق:

أخ مصباح صدقني، نحن نعرف أن في كل زاوية مهرباً يستطيع أن ينقلنا ونحن نعرف أنك إنسان ملتزم وخلوق، سامحنا على كثرة الأسئلة ماذا علينا أن نفعل الآن؟

نفخ مصباح نفخة قوية دلالة الضجر وقال:

لا بأس سأحتملكما كرمى لما تعانيانه في بلادكما لا أكثر، الآن احزما حقائبكما وجهزا نفسيكما ستنتقلان إلى مدينة في الجنوب وهناك تنتظران موعد الرحلة أفهمتما؟

بلهفة أجاب حازم:

نعم، نعم يا أخي مصباح فهمنا وسامحنا مرة أخرى.

بصوت رخيم وهادئ:

لا بأس ولكن عليكما التزام السرية تماماً، في النهاية أنتما طالبا لجوء أما نحن؟؟؟ ثم حرّك رأسه الكبير الذي يغطيه شعره المجعد بطريقة تظهر خشيته من إفشاء أي معلومة عنه:

تعرفون أليس كذلك؟.

نعم... نعرف، لا عليك أخ مصباح لا عليك... أجاب توفيق.

حازم وتوفيق، صاحبا التاريخ المشترك المتقارب المتباعد، الزنزانة والتظاهرات والهاربان من طرفي الصراع في بلديهما، حازم وحيدٌ لأهله، ليس لديه إخوة أو أخوات حصل على إجازته الجامعية قبل أشهر من وصوله إلى اسطنبول، عمل محاسباً في فندق مدة شهرين في أكبر مدينة في تركيا (اسطنبول)، ضاق ذرعاً فقرر ركوب البحر باحثاً عن ذلك الحلم الذي يسمى (أوروبا)، أما توفيق فشيء آخر تماماً، من أسرة كثيرة العدد، طبيب أسنان حديث التخرج أيضاً، ضاقت به الأرض بما رحبت، ساهم في الكثير الكثير من النشاطات المدنية في بلاده ولكنه في النهاية فر هارباً بجلده، لم تستطع الأجهزة الأمنية الحكومية معرفة أي شيء عن نشاطه ولكنه رفض السلاح وحمله ورفض دخوله إلى البلد، فما كان إلا أن اتهم بالخيانة من أولئك الذين لم يعد يرون في أي رأي آخر إلا عدواً، وبين ليلة وضحاها أصبح بين حجري الرحى، فعندما تطحنك الحياة ليس هناك مفر من أن تصبح دقيقاً وتخبزك الملمات، أمضى الليالي والأيام وهو يحاول التنقل من مدينته التي يعيش فيها قرب العاصمة حتى الحدود الشمالية، أفنى روحه وهو يتنقل من وجه إلى وجه ومن لحية إلى لحية ومن رتبة إلى رتبة ومن بزة عسكرية إلى أخرى؛ يا للروح عندما تُرهق! يا للجسد عندما ينهشه من تحبهم ومن تخلص لهم! يا للحلم عندما يسرقه السارقون!

شاي لو سمحت، قال للصبي الصغير الذي يعمل في المقهى الشعبي المحاذي للبحر ثم أدار وجهه ناحية حازم وقال:

ما بك يا حازم؟ إلى متى ستبقى هكذا؟ ما بك خائف؟ ألم نتفق أن تستمع فقط؟ وأن لا تفسد علينا عملنا؟ توترك وخوفك سيفسدان كل شيء، تناول كأس الشاي من الصبي، في هذه المقاهي كل شيء سريع، الشاي والقهوة وأي مشروب آخر، ما عليك إلا أن تسحب الكرسي الخشبي الصغير وتجلس عليه.

يا توفيق، افهمني، لم أهرب من الاعتقال والحواجز والقصف والقنص لأصبح وجبة دسمة لسمك البحر أفهمت؟

ههههههه ضحك ووضع كأس الشاي من يده:

معك حق، فأنت دسم ومن المؤكد أن السمك سيكون سعيداً بك واستمر في الضحك.

يكفيك سخرية من وزني يا توفيق، أن تعرف ما حل بي وكيف بقيت في غرفة واحدة مدة سنة كاملة لا أخرج أبداً بسبب مطاردتي من البوليس السري.

لا تغضب لا تغضب، غداً ستقابل كارلا وستروي لها كل شيء حسناً؟

يرتشف حازم آخر ما تبقى من كأس الشاي الخاص به:

جيد، الأجانب جيدون أتمنى أن تغرم بي وأتخلص من هذا العذاب.

يعاود توفيق الضحك:

على شو دخلك على شو هههههه؟

تباً لك يا توفيق أنت شخص مغرور.

يقف توفيق ويحرك كفه على رأس حازم.

لا تغضب يا حبيبي لا تغضب، هيا نذهب فعلينا الكثير لنفعله.

....

ترجلا من الميترو وصعدا السلالم الكهربائية، رغم ركوبهما الدائم في المترو طوال إقامتهما في اسطنبول إلا أنهما يبقيان مندهشين من مناظر كل شيء، أربع طبقات تحت الأرض، مقاهٍ ومحل لبيع الأطعمة، إعلانات على الجدران، أعمى يعزف على السكسفون ليشحذ الأموال، صعدا من النفق إلى وسط ساحة تقسيم الجميلة والكبيرة في وسط المدينة، العرق يتصبب من جبين حازم، هو هكذا حتى لو كان الثلج يتساقط يبقى عرقه يتساقط، توفيق يشتري الكستناء الطازجة اللذيذة، رائحة المطر والندى تنبعث من كل شيء، بائعو زهور وأصوات موسيقى، شباب وصبايا عاشقون، مخنثون وناشطون سياسيون، تقسيم يا له من مكان جميل! قالها توفيق وقدم الكستناء لحازم، تناول حازم الكيس الورقي وأومأ برأسه دلالة الموافقة، وجهه العريض وبنيته السمينة وسترته الزيتية اللون وبنطاله الضيق.

ذكرني أن أشتري لك بنطالاً بعد انتهاء المقابلة، أفهمت؟ قال توفيق.

حسناً فهمت ويكفي غمزاً ولمزاً.

يتوقف توفيق، يخرج يديه من جيبي المعطف الأسود يضرب كفاً بكف:

يا حازم يا حبيبي يكفي حديثاً كالأطفال، هذا البنطال ضيق عليك وإذا ما تمزق فجأة لا سمح الله فنصف اسطنبول ستشاهد مؤخرتك حسناً؟ هل يرضيك هذا؟

مشى حازم وهو يتمتم كلاماً غير مسموع متذمراً ودون أن يجيب توفيق.

الطريق مبلل بالمطر، حجارة سوداء ترصفه والبنايات مكسوة بالحجر الأبيض والسكري المزين بالإضاءة الباهرة في كل مكان، مصابيح حمراء وخضراء وزرقاء متدلية من حبال تملأ كل واجهات المباني، شاب وفتاة يعزفان الناي والكمنجة، عاشقان يتعانقان ويضحكان، ترام سياحي يقطع الطريق بهدوء ذهاباً وإياباً، لا صوت لسيارة واشتمام لرائحة عوادم السيارات، محال الملابس والأطعمة والحلويات، البارات وأماكن اللهو والسهر وصوت البزق التركي في كل مكان ورقص، رقص، رقص.

توفيق لا تزول الابتسامة عن وجهه في هذا المكان من العالم، تقسيم وشارع الاستقلال وتوفيق واحد في ثلاثة، فكما كان يشكو همَّه وتعبه وقلقه لحجارة دمشق أصبح يشكوها لحجارة تقسيم، وكأنما قلبه العاشق هناك يعشق هنا ليخفّف من لوعة الاشتياق وفداحة الاغتراب، وحازم يدير وجهه بين واجهات المطاعم والنساء الجميلات اللواتي يتجاوزن الطريق ذهاباً وإياباً كأنه يبحث في وجوههن عن متعة هاربة أو هدية إلهية يحاول التقاطها. تجاوزا العديد من الجادات التي تتقاطع

في شارع الاستقلال يميناً ويساراً، ثم أخيراً وصلا، دلف توفيق وحازم من مدخل البناء الحجري الواقع وسط شارع الاستقلال في قلب مدينة اسطنبول التركية، توجها ناحية المصعد وقفا برهةً ثم طلبا المصعد، دخلا، ضغط توفيق على زر الطبقة الرابعة.

وصلنا، قال توفيق ثم قرع الجرس.

فتح الباب الخشبي ووراءه شاب عشريني خفيف الشارب عريض الابتسامة رحب بهما بلكنة انكليزية واضحة:

أهلاً بكما... أنا جيمس.

صافحه حازم شاكراً، فك توفيق أزرار المعطف الأسود، وابتسم ابتسامة عريضة مادًّا يده مصافحاً ثم عرَّف بنفسه بهدوء:

توفيق.

أجابه جيمس بابتسامة عريضة:

أهلاً بكما، الأستاذة كارلا بانتظاركما وأشار لهما إلى باب المكتب الواقع نهاية الممر الضيق الذي يفصل مجموعة من الغرف، سجادة حمراء تغطي معظم الأرضية الخشبية للمكتب، ما إن اقتربا من الباب حتى فُتح لتظهر كارلا، الفتاة الانجليزية الشقراء، شعرها مربوط إلى الخلف وابتسامتها متزنة تبدو وكأنها في منتصف عقدها الثالث متوسطة الطول والجسد:

تفضلا.

جلسا على المقعدين الجلديين المقابلين لطاولتها.

أهلاً بكما، قالت ثم أكملت لتعرف بنفسها:

أنا كارلا مديرة مكتب المنظمة الدولية الحقوقية في اسطنبول وأعمل على إعداد تقرير عمّا يحدث في بلدكما، وقد دلتني السيدة مها عليكما لكي آخذ إفادتكما، وقد أخبرتني أنكما غادرتما بلدكما منذ وقت قصير نسبياً؟

أومأ الاثنان برأسيهما دلالة الإيجاب.

أرجو أن تسمحي لي.

تفضل أخ؟

أنا توفيق، طبيب أسنان وهذا صديقي حازم محاسب.

أها، أهلاً بكما.

أعتقد أن المنظمات الحقوقية تكتفي دائماً بالكتابة ونقل المعلومات، هل أنتم مختلفون؟ يعني هل لديكم ما تقومون به؟ إذا كان لديكم ما يخدم قضية شعبنا سنقدم لكم ما تشاؤون، أستميحك عذراً، معظم هذه المنظمات تقبض تمويلها فقط لتقول كم من الأشخاص ماتوا من شعبنا أليس كذلك؟

يبدو أنك عدائي تجاهنا؟ قالت كارلا مبتسمة.

أرخى توفيق ظهره على المقعد:

سيدتي، أنا لست عدو أحد ولا أرى حولي أعداء، وبصراحة لا ينقصني أعداء أكثر وضحك.

لا بأس دكتور توفيق، نحن نعمل على إعداد ملفات كاملة وهذه الملفات تساهم بشكل رئيسي في تأمين المادة القانونية التي تمكن

المجتمع الدولي من محاكمة مجرمي الحرب في بلدكم، وقد باشرنا بثلاث دعاوى أمام القضاء الأوروبي حتى الآن، ونسعى لرفع دعوى أمام المحكمة الدولية ولكنها تصطدم بعدم الإجماع الدولي في مجلس الأمن حتى الآن، يمكنك التأكد من كلامي من خلال موقع منظمتنا الإلكتروني، ثم أمسكت بورقة صغيرة وكتبت رابط الموقع وقدمته لتوفيق.

رفع نظارته الطبية قليلاً، نظر إلى عدستيها ثم نفخ عليهما وراح يمسحهما:

حسناً قال توفيق.

ابتسمت كارلا ثم نظرت إلى المسجلة الرقمية الموضوعة جانبها على الطاولة، عدلت من مكانها:

جيد: قالت.

أحضرت نادلة المكتب القهوة.

شكراً قالا.

ابتسمت كارلا.

اعذرونا، هنا لا نخير ضيوفنا ماذا يرغبون أن يشربوا لأننا نشعر أن الجميع يفضل القهوة التركية.

تبقى لذيذة، قال توفيق وتناول فنجانه وكذلك فعل حازم.

ابتسمت ثم وضعت نظارتها الناعمة الطبية وأمسكت بأوراق بيضاء لتدوين الملاحظات على ما يبدو:

نبدأ؟ قالت.

جئنا لنبدأ، قال توفيق.

ضغطت على زر التشغيل للمسجل:

بدأ توفيق الكلام:

من السهل دائماً أن تقتل ولكن إن كنت غير قاتل كيف يمكن أن تشرح كيف رأيت القتل؟ وكيف جلست يوماً مع قاتل؟ عدل من جلسته ثم سأل:

مسموح التدخين؟

طبعاً، أجابت كارلا.

وضع رجلاً على رجل، أشعل سيجارته بعود ثقاب، هو لا يحب (الولاعة) لأنها تشعره بالسرعة التي يمقتها، عود كبريت، رائحة عطنة، ثم تهز اليد مرتين لينطفئ العود بعدها بخشوع أليست الحياة هكذا؟ شيء يشعلك فترفع رأسك شاعراً أن بإمكانك أن تحرق العالم ثم نفخة قليلاً، بح، تقضي عليك، ثم أضاف:

أكبر كارثة يا سيدتي ليس أن تجلس مع قاتل فقط بل أن تهتف له أيضاً، ارتشف من فنجانه، سحب من سيجارته ونفث الدخان شارداً:

سيدتي كارلا، سجلي لديك ما سأخبرك إياه، تسعة وخمسون يوماً حتى تمكنت أن أتجاوز مسافة أربعمائة كيلومتر وأصل إلى هنا، تسعة وخمسون يوماً من دون زيادة أو نقصان.

نزعت نظارتها ووضعتها على الطاولة وقد ظهرت ملامح الدهشة على وجهها:

ماذا؟

نعم بكل بساطة يا سيدتي.

كيف؟

في إحدى ليالي تشرين، ورائحة الشتاء قادمة، جاءني اتصال في وقت متأخر من الليل، لا أذكر تحديداً ولكن حوالى الثانية أو الثانية والنصف تقريباً، كان الاتصال من أحد أصدقائي الذي كان يعمل في مجال المساعدات الطبية لجرحى الحرب، قال لي بالحرف الواحد:

توفيق، اخرج الآن فوراً من منزلك وسأخبرك لماذا عندما أراك، طبعاً لم أنتظر حتى ثانية واحدة، بعد أقل من دقيقتين كنت قافزاً من سطح منزلي إلى سطح البناء المجاور ثم الشارع الخلفي مغادراً الحي كله لا بل المدينة التي كنت أقطن فيها، هربت إلى منزل أحد أقربائي، ولأنني لأول وهلة حسبت نفسي أني أهرب من البوليس السري، لذلك نزعت شريحة هاتفي المحمول وأتلفتها.

ممن إذن كنت تهرب؟ سأل حازم سابقاً كارلا هذا السؤال.

أصدقائي، قالها توفيق وابتسم ابتسامة قهر.

بصوت مرتفع تملؤه الدهشة، أصدقاؤك؟ قالا.

نعم؟ ولمَ الدهشة؟ أصدقائي، أولئك الذين تظاهرت معهم ووزعت المناشير وأسعفت الجرحى وأغلقت الطرقات وأحرقت الإطارات احتجاجاً معهم على اعتقال هذا الشخص أو ذاك، هؤلاء يا سيدتي، من أرادوا قتلي.

والسبب؟

لا أدري، أوأقله أدري، نعم أدري لأني لو قلت إني لا أدري أكون كاذباً ولكن كل الأسباب تبدو لي في اللحظة الأولى واهية وغير كافية لأن تقتل أولاً وقبل أي شيء إنساناً، وثانياً صديقك ورفيقك الثوري إذا صح التعبير....

قالوا لي لاحقاً إنك خائن، وقلت لهم إن هذا رأيي فأعادوا الجملة مرة أخرى ألم نقل لك إنك خائن؟ كيف يا سيدتي يكون الرأي خيانة؟

ولكن يا توفيق ألم يكونوا مظلومين مثلك؟ أليسوا من أولئك الذين سحلوا وعذبوا وقتل أغلى الناس على قلبهم، كيف يمكن أن تقنعني الآن أنهم يريدون قتلك لأنك تختلف معهم؟

أخطر الأمور يا سيدتي عندما يدخل الظالم في تكوين المظلوم فيعجنه ويخبزه مثله، عندما يسيطر حب الانتقام على العقل فاقرئي على الإنسانية السلام.

وما هو الرأي الذي اعتبروه خيانة؟

أشعل سيجارة ثانية وأضاف:

لا للسلاح.

فقط؟

عندما يصبح سلاح المقاومة تجارة ومعارك المقاومة للحصول على الغنيمة نعم تقتل عندما ترفضه وطبعاً هناك أمور أخرى ثانوية، ولكن الأصل أنني كنت ضد السلاح والعنف، وكنت مصراً أن أي

مطلب يمكن تحقيقه بالوسائل السلمية الهادئة الفاعلة غير المنفعلة لكن وللأسف أصبحت خائناً، تلألأ الدمع في عينيه، السلاح اللعين يا سيدتي أعمى لا يعرف صاحباً أو عدواً بل تختلط فيه المعايير فيصبح الجميع أعداء.

اتصلت بهم من حيث اختبأت وحاولت أن أشرح المسألة وأن أقول لهم إني اتخذت هذا الموقف لأني أراه جحيماً وناراً ستحرق الأخضر واليابس.

ماذا أجابوك؟

تحترء إنت شو دخل أهلك؟

أطرقت كارلا رأسها ناظرة إلى الطاولة، ثم أعادت النظر إلى وجه توفيق:

ألهذا الحد؟

وأكثر، قالوا لي بصراحة لا مكان لك بيننا، أنت أصبحت محل شك والجميع ينظر إليك بريبة ولكي لا نظلمك، ارحل.

حسناً ورحلت؟

نعم، قررت الرحيل ولكن مع هذا القرار بدأت الرحلة، بعد هذه المحادثة انتشرت إشاعة كالنار في الهشيم، أني عميل للحكومة وعلى الجميع الحذر مني. في هذا الوقت، علمت الحكومة عبر عملائها الحقيقيين أني كنت أعمل في النشاط المدني وهنا، هنا بالذات أصبحت أيضاً مطلوباً أمنياً للحكومة، بسط ذراعيه في الهواء وابتسامة

ساخرة على وجهه، وهكذا يا سيدتي كل المعابر والمسالك أصبحت أضيق من خرم الإبرة، هل تعلمين ما خرم الإبرة؟

هزَّت رأسها بأسف:

نعم أعلمه.

أصبحت الدنيا يا سيدتي أضيق من خرم الإبرة.

ماذا جرى بعد ذلك؟

قررت التوجه شمالاً وطبعاً لم أعد أستطيع طلب مساعدة (أصدقائي) أو من كانوا أصدقائي للخروج من البلد.

ماذا فعلت؟

استأجرت مهرّباً.

أيهرب الإنسان من بلاده؟

نعم، حين تتمزق.

يا إلهي، قالت !

أوصاني المهرّب بأن أبقى متخفياً أربعة أيام أو خمسة حتى يصبح هناك إمكانية للخروج عبر الطريق ناحية الشمال، كانت المداهمات شديدة ولا يأمن أحدنا أن يبيت ليلة كاملة في بيت أو دكان أو حديقة، قضيت أربعة أيام في قن للدجاج في المزرعة الخلفية وراء منزلنا، أخليته من الدجاج ونمت أو تخيلت نفسي أنام لحظة.

نعم.

كست ملامح الشفقة وجهها، وكادت الصفرة تكسو لون وجهها كله:

أقضيت أربعة أيام في قن دجاج؟

ابتسامة غائرة في وجهه:

نعم ولمَ الدهشة؟ يبقى أفضل حالاً من الزنزانات التي يمضي فيها السجناء كل حياتهم أحياناً هناك.

حدثني بما كنت تشعر؟

أشعر؟ لا يهم الشعور في تلك اللحظات، كزَّ على الحروف حتى خرجت كمنجل في الظهر، قولي بدقة ما هو اللاشعور الذي أصابك، حرَّك يديه بطريقة بهلوانية، قطع البلوك تغطيك عوضاً عن اللحاف، صقيع الليل مع أزيز الصراصير عوضاً عن حنان أمك، الفتحة الصغيرة التي تستنشقين منها الهواء، الرعب المزلزل كلما تذكرت أن هذا القن يشبه القبر، نعم يشبه القبر! ولكن لا تدخله لا الشياطين ولا الملائكة الهواجس والخوف فقط، هل هناك ملاك للخوف؟ يقال إن لكل شيء ملاكاً، للخير وللشر وللمطر وللرعد، للجبال وللأنهار، لا بد أن يكون للخوف ملاكٌ يزرعه ويرعاه حتى يونع في القلب ولا يتزحزح، في القن يا سيدتي يتوقف القلب عن النبض، يصبح اسفنجة يمتص قهر العالم وحقد العالم وكره العالم، كنت أنتظر فترات الليل الدامس التي أعلم أنه من المستحيل أن تمر الدوريات الأمنية بها أو أن يراني أحد في خلالها لأخرج وأستنشق الهواء قليلاً وأريح جسدي، ولكن لم تكن تتجاوز النصف ساعة تلك الاستراحة على أكثر تقدير، أربعة أيام لم أخبر أحداً ولا حتى أهلي حتى لا يشك أحد في الأمر.

ينزع النظارة مرة أخرى، يمسحها من الغبش الذي أصبح سميكاً بفعل الذكريات:

هل يمكنني أن أستنشق قليلاً من الهواء عبر النافذة؟ استأذن

أكيد، تفضل.

فتح النافذة وأجال نظره من فوق باتجاه شارع الاستقلال، تمعن بالمارة من فوق، ابتسم وأعاد نظره تجاه كارلا وحازم:

أتعرفان؟ النظر من فوق إلى الناس مختلف، ضحك ضحكة خفيفة ثم أردف:

ممتع!

أنكمل الحديث؟ قالت كارلا.

يبدو أنك متشوقة.

لنقل إنه عملي.

حسناً بالطبع سنكمل، استدار وأصبح ظهره تجاه النافذة، بقي واقفاً وأكمل:

بعد ذلك انتقلت للسكن عند أحد أقربائي في مزرعة خارج المناطق السكنية، سكنت لديه يومين ثم اتفقت مع المهرّب لينقلني إلى الحدود الشمالية للبلاد مع تركيا وهنا بدأت الرحلة.

أصلحت من نظارتها، ركزت جلستها، أعادت ابتسامتها الناعمة:

أخبرني بكل التفاصيل لو سمحت وأنا كلي آذان صاغية.

وصلتني رسالة عبر بريدي الإلكتروني تحدد ساعة ومكان اللقاء، الثالثة فجراً من يوم الأربعاء عند مفرق الحي الغربي من المدينة، لم

يكن بالإمكان التجول بالسيارة في تلك الساعة من الصباح، مشيت حوالى النصف ساعة من المزرعة التي أقمت فيها حتى مكان الموعد، معظم المسافة كانت عبر طرق ترابية بين البساتين والمزارع، كان يمكن جداً أن أقع في كمين أو بيد لصوص أو قاطعي طريق لكن الله ستر، ووصلت لأجد سيارة (بيك آب) زرقاء اللون مصنوعة في نهاية السبعينيات من القرن الماضي، وقد تفحصت طبعاً الهيكل كثيراً لأدرك لون السيارة بالشكل الدقيق، فهيكلها مليء بالثقوب وهي مكشوفة من الصندوق الخلفي قلت للسائق:

أبا إياد، هكذا سأموت من شدة البرد؟

قهقه السائق بصوت مرتفع، أعاد سيجارته إلى طرف فمه اليسار:

طلاع جنبي وبلا كتر حكي.

كان حاسماً بأن أخرس وأنه ليس هناك أي مجال للاعتراض. أبو إياد بقامته الطويلة، وجسمه الرياضي، وسترته السوداء الطويلة، كان يعرف مهنته بشكل دقيق حسبما قال ثم أضاف:

لا تخف يا صديقي لن تموت من البرد، قد تصاب بالإسهال لا أكثر، ولكن حاول أن لا تصاب الآن فلن نتمكن من الوقوف كثيراً في الطريق، حسناً؟

أومأت حينئذ برأسي دلالة القبول ودسست يدي في جيب معطفي ورفعت ياقة المعطف لتغطي أذني بعد أن أصبحت مطارداً من فريقين لا يمكنني أن أغامر أبداً ويصبح المهرّب أيضاً عدوي، عندئذ لا بد أنه

سيقضى علي،كم هي الحياة غادرة فجأة ومن دون مقدمات، تحاصرك كما يحاصر الماء الجزيرة، مرَّت خمس دقائق ولم يتحرك، سألته:

هل ننتظر أحداً؟

نظر إلي، تفحص ملامحي قليلاً، والسيجارة ما زالت على طرف فمه الأيسر، نفث القليل من الدخان ولم يجب عن سؤالي، بصراحة كاد قلبي لحظتئذ يقفز من صدري خوفاً، هل يعقل أن هذا كمين؟ وهل يعقل أنني وبعد قليل سأكون في قبضة أيٍّ من فصيلي الصيد؟ لم يطل جزعي كثيراً، بالمناسبة نسيت أن أسألك يا كارلا هل جربت الخوف يوماً؟

اندهشت من سؤاله وأوقفت آلة التسجيل.

لماذا تسأل هذا السؤال الغريب؟

فعلاً، قال حازم.

بهدوء شديد وكأنما أصبح بحالة استرخاء قال لها:

أرجو أن تجيبيني أنا مهتم بالجواب.

طبعاً شعرت بالخوف.

ممَّ؟ مثلاً ما هي المواقف التي شعرت معها بالخوف؟ هل خفت يوماً أن يكسر عليك باب البيت وتجدي عشرات البنادق فوق رأسك؟ هل خفت يوماً أن ينتهي الخبز لديك في البيت ولا تجدي ما تطعمين به أطفالك؟ تغيرت ملامحه، أثقل في الحروف فأصبحت تخرج كأنها منهكة، هل خفت من الغد وتمنيت أن تموتي الآن كي لا تعيشي كل

يوم حزن الخسران والفقدان؟ أنا سأجيب عنك، لا أنت لم تشعري ولن تشعري لذلك لا يمكنك أن تفهمي جيداً ما أقول.

فوجئت كارلا من استمرار النظرة التي اعتبرتها عدائية منه تجاهها في أول لقائهما، قالت له مباشرة بكل ما يملك الإنجليز من جدية وبرود:

مستر توفيق في النهاية أنا غير مسؤولة عما حل ببلدك.

هنا المشكلة أنك غير مسؤولة عما يحدث ولكنك تقبضين راتبك من أجل الاهتمام بما يحدث في بلدي أليس كذلك؟

تدخل حازم ليخفف من حدة التوتر:

توفيق، لا شأن لكارلا بالأمر، السيدة هنا تقوم بعمل محدد ونحن قبلنا التعاون.

معك حق، أنا آسف.

لا بأس، قالت كارلا أتريد أن تكمل؟

شرد قليلاً، هام بذهنه هناك، بحارته القديمة وصحبة الحارة، برائحة والده وبصوت أمه يصدح في كل الأماكن، بعامل التنظيفات الذي كان يطرق بابه كل صباح، بحديقته الصغيرة بجانب البيت، بأطفال المدارس الذاهبين صباحاً بملابسهم النظيفة إلى المدرسة والعائدين والغبار يغطي ملابسهم، بالباعة الجوالين وأصواتهم المزعجة، اشتاق إلى كل التفاصيل، (إلى لمة) الشباب وحلقات الرقص الشعبية بالأعراس، اشتاق إلى شجرة المشمش الهندي التي في حديقة جاره،

والتي اعتاد أن يسرق معظم ثمارها خلسة، إلى القمر، نعم اشتاق إلى القمر، كان دائماً يقول:

عكس كل ما يقوله علماء الفلك، القمر أجمل ومختلف في بلدي.

استفاق من شروده وأكمل:

المهم أنه لم يطل جزعي كثيراً، اكتشفت أن شخصاً آخر سيرافقنا طوال الرحلة، وأن أبا إياد كان ينتظره لا أكثر، كان شاباً في منتصف عقده الثاني،صبياً إذا صح التعبير، كان من الواضح أن النعاس قد غلبه أو أنه منهك ولم ينم إلا القليل،ألقى علينا تحية بيده من دون أن ينبس بأية كلمة، صعد إلى صندوق السيارة الخلفي، وضع حقيبة الكتف واستند إليها، كان قد جلب معه غطاء من الصوف ليقي جسده برد الفجر القارس، فرش جزءاً منه على أرض الصندوق وتغطى بالنصف الآخر، اندس أسفل الغطاء وبكل براءة كأنه طفل، غفا، أدار السائق محرك السيارة، رمى بعقب سيجارته من النافذة، ضحك ضحكة سخرية خفيفة:

جيل آخر زمن، صمت قليلاً ثم قال:

مسخرة!

لم أشأ أن أرد عليه أو أن أحدثه بشيء عن نظرته إلى هذا الجيل، اكتفيت بالتفرس في ملامح وجهه التي يغيِّبها الظلام إلى حد كبير، لحيته النابتة مثل إبر القنفذ، سيجارته التي لا تفارق شفتيه، ذقنه

المكعبة الشكل، الوشاح من الصوف الذي يلفه حول عنقه، قاد السيارة في طريق إسفلتي ضيق ثم غاص بين أشجار المشمش والزيتون باتجاه الوجهة التي حددت لنا، أصبح يقود السيارة بين البساتين ليتفادى الحواجز المنتشرة في المكان، وأنا خائف، لا يمكنني يا سيدتي أن أكذب عليك، أنا فعلاً كنت خائفاً ومضطرباً ولدي شعور أنه سيلقى القبض عليَّ في أية لحظة. بعد مرور حوالى الساعة ونحن نسير في تلك الطرقات قال لي:

جهِّز نفسك.

سألته: لماذا؟

أجابني بأن هناك منزلاً بانتظارنا وأننا سنتناول الفطور هناك، فجأة دلف إلى طريق ترابي يملؤه الوحل، حجارة كبيرة تغطي معظم الطريق وأبو إياد يذهب بالسيارة يميناً ويساراً، في محاولة لتفادي هذه الحجارة أكمل السائق الطريق، اقترب الفجر من البزوغ والطريق المتعرج الموحل اقترب من الانتهاء، اضطر أبو إياد أن يلتف بالسيارة حول أكثر من قرية لتفادي الطريق الرئيسي الذي تسيطر عليه القوات الحكومية، حيث المعارك كانت ضارية في الأيام الماضية للسيطرة على هذا الطريق الرئيسي الذي يربط مدينة من كبريات المدن بدولة حدودية. أخبرني أبو إياد أنه في اليوم الفائت حاول ابن عمه وهو رجل ستيني الوصول إلى الحدود عبر الطريق الرئيسي، لسوء حظه أو لحسن حظه لا أحد يعلم أن اسمه يشبه اسم أحد قادة مجموعات القوات المناوئة

للحكومة، أنزل من سيارته وأوقف إلى الجدار في البرد ساعتين وعندما طلب أن يرتاح قليلاً لكبر سنه أراحه الضابط المناوب، الذي يمضي الليل في شرب العرق البلدي برصاصة في رأسه، ثم رمى الجثة إلى مختار القرية قائلاً له إن هذا جزاء من لا يغير اسمه إذا تشابه مع اسم إرهابي خائن، ما هذا الزمن الذي تضن عليك الحياة فتصبح مساحتها أضيق من مساحة اسم لم تختره أنت، ولم تعرف ما هي الظروف التي دعت إلى تسميتك به، هل يأتي الشخص وتأتي لعنته مع اسمه؟

تنهدت صامتاً عاجزاً عن التعبير.

شو يا إستاذ باين ما علقت ولا حكيت؟

حاولت أن أشرح له، بدأت بالحديث:

يا عمي أبو إياد.

يقاطعه السائق:

شوف؟ أنا حمار وبعرف إني حمار وكل يلي بيني وبينك كم سنة فبلاها قصة عمي هي، بدي جواب وهلأ.

عن شو؟

هل يأتي الإنسان ولعنته معه؟ ما ذنب كاسم حاج منصور حتى يتجمد من البرد ثم تطلق عليه الرصاصة من الخلف ليتهشم رأسه ما شأنه بالحرية؟ لم يكن كاسم يعرف من الحياة إلا زوجته سميحة التي كان يضاجعها كل يوم بعد العشاء قبل أن ينام، وبالمناسبة كان يقول لي مهيب ولده بأن والده يضاجع أمه في صمت، يعني من غير صوت

لأن منزله مكون من غرفتين وبنهاية (المكالمة) يقلب إلى (الرجاج) هههههههه، حياة مسخرة، الله يرحمو راااااااح.

لم أستطع أن أجيبه حقاً، ولم أستطع أن أحدد هل فعلاً يأتي الإنسان ملعوناً باسمه؟ بموقعه؟ بخيراته؟ ألم يقولوا لنا دائماً إن لعنة وطننا خيراته؟ لماذا لا يكون وطننا مثلنا لعنته باسمه، بحروفه القليلة القديمة الماضية في عروق التاريخ حتى القلب؟ لماذا لا تكون لأوطاننا لعنات أكثر؟ لعنة مائه؟ نفطه؟ غازه؟ موقعه؟ ولكن سأكون صريحاً معك أكثر إذ أعتقد أن لعنتنا جهلنا، نعم جهلنا، إن الأمم مهما تمتعت بخيرات وأناس رائعين لا يمكن أن تنهض بجهلها، فكرت أن أقول له ذلك؟ فكرت أن أقول له إن مأساتنا مع ذلك الضابط ليست في أنه سكران، بل في أنه مستعد أن يفعل أكثر من ذلك وهو في كامل قواه العقلية، أفظع قتل هو القتل الذي يتم عن سبق إصرار وضمير.

كان الفجر قد بزغ، وحقول الزيتون المنتشرة قد بانت. من فضائل شجر الزيتون أن ورقه لا يتساقط في الشتاء، فهو دائم الخضرة يوزع رونقه في كل مكان، ليكسر بلونه الأخضر لون التراب البني وكآبته، رفعت ياقة معطفي مرة أخرى لتغطي أذني من البرد ثم قلت له:

آسف يا عم ولكني متعب جداً وليس لدي القدرة لا على التفكير ولا على الحوار، اعذرني.

تفكير؟ مممممم لا بأس، سيكون لدينا وقت طويل للتفكير أو

بشكل أدق سيكون لديك أنت وقت طويل للتفكير، أما أنا فسأحدثك أكثر عن كاسم فرحلتنا طويلة، هذه القرى التي أمامنا بعضها مع القوات المناوئة للحكومة وبعضها الآخر مع القوات الحكومية، سنتلافى الحواجز الحكومية والقرى الموالية حتى لا يتم سلخك وسلخي معك إضافة إلى هذا التيس المرمي في الصندوق.

لا أدري لماذا ضحكت بصوت مرتفع وسألته، وما أدراك أني ضد الحكومة؟ وما أدراك أن الحواجز التي ضد الحكومة لا تشكل خطراً عليّ، استدرت بوجهي ناحية النافذة ثم أضفت:

يا عم، عندما تنتشر رائحة الموت، ويصبح الرصاص هو لغة الحوار، ويفقد الناس عقولهم ويجرون وراء الغرائزية في كل شيء، عندئذ لا تتعجب من شيء، في الحروب ثمة رغبة انتقامية غير منطقية لا يمكن أن يفسرها أحد أو أن يعرف ما هي، يجتر الإنسان الماضي والحاضر ويتكهن للمستقبل، كل هذا من أجل أن يثير رغبة الانتقام عنده ويغذيها.

التفت أبو إياد ناحيتي، حدَّق إلى وجهي، ثم ابتسم وقال:

أنت بتتكلم كلام كبير ثوي هههههههههههه، يا رجل ما الذي تقوله إن عقلي بحجم عقل هذا العصفور أتراه؟ وأشار بيده ناحية عصفور كان طائراً بجانب السيارة، وبدأ أبو إياد يغني أغنية من أغاني فيروز، وقف توفيق وسط المكتب قبالة كارلا وحازم وبدأ يرفع صوته قائلاً:

بدأ يغني يا كارلا، أشجار الزيتون شعرتها ترقص وتتمايل مع صوته، فوجئت أن صوته جميل وحنون في الغناء إلى هذه الدرجة.

ريما... ريما الحندئة، شعرا أشئر ومنئا

وإن ما عطيوني ياكي، لجبال العالي تا هدا

ويعيد المقطع ويعيده

ريما... ريما الحندئة، شعرا أشئر ومنئا

وإن ما عطيوني ياكي، لجبال العالي تا هدا

ويعيد المقطع ويعيده ويخرجه بنغمات متعددة، أذهلني وجعلني أنسى خوفي والبرد والوحشة والأهم أنساني خشيتي منه، لقد كان يغني من روحه والذين يغنون من أرواحهم لا يمكن أن يؤذوا أحداً.

أنا شخصياً يقتضي عملي نقلك بأمان إلى الدولة المجاورة، لا يهمني كثيراً مع من أنت أو ضد من، سأحاول أن أتلافى المرور على أي حاجز مع أو ضد الحكومة، فأنا لدي اقتناع كامل أنه في الحروب العبثية يصبح كل شيء مباحاً، قال ذلك أبو إياد بينما أصبحنا في أول القرية على طريق من الإسفلت فيه بعض التعرجات والمطبات التي نشأت بفعل عوامل الشتاء القاسية، بيوت القرية المتناثرة هنا وهناك، معظم البيوت من الإسمنت الرصاصي الأدكن، الوجه الصباحي للقرية كئيب، بعض الرجال عائدون من صلاة الفجر أو ذاهبون إلى حقولهم أو أعمالهم، شعرت أن القرية تتمطى وأنها تهم الآن بأن تستيقظ بكسل،

مضى بالسيارة مضي العالم في طريقه من دون مواربة، استدار حول حارة أو حارتين وتوقف أمام دكان بسيط واجهته فضية اللون حديدية وطلب مني أن أنتظر قليلاً، ترجل من السيارة ثم قرع الجرس الموجود بأعلى الباب الحديدي الأبيض الملاصق للدكان، تكورت بالمقعد أكثر على نفسي، وشعرت أن البرد والتعب قد أنهكاني حتى النهاية، التفتُّ من الزجاج الخلفي لكي أشاهد الشاب المرمي في الصندوق وإذ هو على حاله نائم، أدرت وجهي لأجد أبا إياد يطلب مني النزول وأشار إلي بأن أوقظ الشاب النائم في الخلف.

ترجلت واتجهت ناحية الشاب، نخزته في خاصرته ومررت أصابعي على وجهه ولكن عبثاً لا فائدة، لم يستيقظ، مررت أصابعي أكثر ونخزته نخزات أقوى ولكن لا فائدة، كان أشبه بالميت أو المغمى عليه، غضب أبو إياد ورجع بسرعة ثم قام بصفع الفتى على وجهه بأقصى ما يستطيع ثم نظر ناحيتي وقال:

هادا الجحش ما بفيء غير هيك، هل تريدون فضحنا؟ هيا.

تلعثم الشاب واستيقظ فزعاً من شدة الصفعة:

شوفي؟ شوفي؟ قالها بلهفة.

لا شيء والله؟ لكننا وصلنا وإذا ما بقيت هكذا ككيس التبن مرمياً في الصندوق فسوف تعلم القرية كلها بعد خمس دقائق أن هناك أغراباً في القرية وعلى هذه الحالة سنقع كلنا في ورطة أفهمت؟ هيا بسرعة ألا تطاردك المخابرات؟

بلى.

كيف يمكنك النوم أيها الغليظ؟ أن يطاردك ملاك الموت أهون من أن تطاردك المخابرات هيا ترجل.

حمل الفتى غطاءه الصوفي وحقيبته وحملت أنا حقيبتي ودخلنا إلى المنزل، كان هناك ظل امرأة خلف الباب، الساعة قاربت السادسة والنصف صباحاً، دخل أبو إياد أولاً ثم الفتى ثم أنا.

السلام عليكم، قلنا.

وعليكم السلام أجابت المرأة، تسللنا عبر ممر مرصوف ببلاط أبيض ناحية الغرفة الداخلية للمنزل، الغرفة مفروشة بفرش من الإسفنج تغطي زوايا الغرفة، وضعنا حقائبنا وجلسنا في الزاوية اليمنى للغرفة، دخلت المرأة صبّت قليلاً من الديزل في خزان المدفأة المكور ككرة القدم، وأشعلت المدفأة، كنت أراقبها بوجل، عشرينية الوجه كانت، لكن كآبة ما كانت تسكن ملامحها، شالها الحريري البسيط المربوط عند العنق، غرة شعرها المنسابة بهدوء وفستانها الخرنوبي الطويل والفضفاض والجاكيت الصوفي الذي يغطي جذعها أعتقد أنه كان رمادياً، التفت ناحية أبي إياد وهمست له:

أين نحن؟

نحن في السماقة، قرية السماقة.

ومع من؟ سألته.

ابتسم واقترب مني ثم قال بمكر:

هذه منطقة تستطيع اعتبارها مممممم منزوعة السلاح، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء والجانبان يستفيدان من زيتها وحقولها وخضرتها ويغضان الطرف عن (ملكيتها)، الطعام يا ابني الطعام، الجوع كافر ههههههه.

آه، فهمت، للحروب قوانينها على كل الأحوال، هكذا قلت له.

صوت المدفأة بدأ يرتفع، اللهب صرنا نشاهده من خلف باب المدفأة الصغير التي تغطي زجاجة جزءاً كبيراً منه، الدفء بدأ يتحرك في أرجاء الغرفة، كأنه أمنا تربت أكتافنا كي ننام، بشع هو البرد وقاسٍ قسوة الغربة، بخار بدأ يتشكل على زجاج النافذة والصبي الصغير أعاد تكوره داخل الغطاء وغفا.

اتفضل شوف لك نام قالها ثم ضرب أبو إياد كفاً بكف.

يا أخي اتركه ينم، لا بد أنه بدأ يشعر بالدفء فنام، لا تنس أن الطريق كان بارداً وكان الهواء طوال الوقت في الطريق يلفحه وهو في صندوق السيارة.

لا حول ولا قوة إلا بالله، ينتظر حتى يأكل فقط.

لا بأس سنوقظه عندما يحضر الطعام.

دخلتَ المرأة بصينية الفطور، زبدة وجبنة ومربى وحلاوة بطحينية إضافة إلى إبريق الشاي لفّت شالها وقالت:

اعتبروا البيت بيتكم أهلاً فيكم يا أبطال.

انصدمت، نظرت ناحية أبي إياد مستفهماً، ناولني رغيفاً من الخبز: كُل في صمت، أتعتبر أن الناس ستستضيفنا لسواد عينيك أم من

أجل نقودك، حبيبي في مثل هذه الحرب لن يحميك إلا من يؤمنون بقضيتك.

تناولت رغيف الخبز، أطرقت رأسي وتنهدت، لو يعلم أني هربت بسبب الذين يؤمنون بقضيتي ولا أدري إن كنت أؤمن بقضيتهم، لعلي خائنٌ فعلاً ولا أدري.

ما إن انتهينا من تناول الفطور حتى غفونا، كنا متعبين جداً.........

نفث توفيق دخان السيجارة العاشرة منذ بدأ الجلسة المعدة للشهادة، نظر ناحية كارلا، قلب نظره في شعرها الذهبي وثغرها الناعم، تفحصها بعمق ثم قال:

اعذريني أطلت عليك أليس كذلك؟

أطفأت جهاز التسجيل وقلّبت نظرها في وجهه الأسمر العريض، شاربه الطويل قليلاً لكنه مشذب ولحيته السوداء المخططة بشكل دقيق:

هل تعبت؟

حرَّك يديه بالهواء مشيراً إلى عدم اكتراثه:

لا تهتمي، الموضوع أكثر من عادي، أو لكي أكون صريحاً سأخبرك بأحداث لأول مرة سأبوح بها، استخراج الذكريات من الرأس يا سيدتي أشبه باستخراج رصاصة لا يمكن أن تخرج من دون ألم أو تعب.

هزَّت رأسها دلالة تفكرها في كلامه ثم أضافت:

ممكن.

لنكمل إذاً قال توفيق.

أشار حازم وكارلا له بأن يستمر.

ما إن مضى بضع ساعات ونحن نائمون حتى استيقظنا على طرق قوي للباب الخارجي للمنزل هههههه، سامحيني إن ضحكت، لا أدري لماذا أضحك بالضبط ولكن عليك تخيل ملامح ذلك الشاب الذي ما كان ليستيقظ بسهولة ولكن عندما سمع الطرق القوي للباب قفز في الهواء وكأنما لسعه عقرب وراح يقفز ويقول:

إجو، إجو هههههههههههه، الفتى المتوسط القامة، النحيل، وصاحب الشارب الناعم جداً، جداً، جداً، والوجه الحنطي والشعر القصير أصبح يدور في الغرفة كحصان يهرب من صاحبه وصاحبه يحاول الإمساك به وهو يصرخ إجو، إجو هههههههه. ضحك توفيق ضحكة قوية وهو يتذكر الموقف، تدخل حازم:

مين يلي (إجو)؟

حسبهم الجيش الحكومي أو الأجهزة الأمنية بالبداية وبصراحة حتى أنا وأبو إياد حسبناهم كذلك، قفز أبو إياد من مكانه ووضع يده على فم هذا الصبي الذي تبين لاحقاً أن اسمه خالد وزعق زعقة مكتومة الصوت:

خراااااااااس، لك خراااااااس رح اتروحنا.

تملكنا الرعب نحن الثلاثة وأصبحنا عاجزين عن أن ننبس بأي كلمة، ننتظر المرأة لكي تنقل لنا أي خبر أو ننتظر أحذية الجنود

لتدوسنا، كتم أنفاس وترقب والساعة تتقدم ببطء، ببطء شديد وما زال قرع الباب القوي مستمراً، جاء صوت المرأة أخيراً:

ميييين؟

جاء صوت من خلف الباب لم نفهمه جيداً، حاولنا استراق السمع ولكن لا فائدة، بدأ صوت المرأة يصل إلينا متقطعاً والباب لم يفتح ثم جاءت إلينا، دخلت مرتبكة متلعثمة، نظرت إلينا وقالت بصوت هادئ:

اسمعوني جيداً، هؤلاء من جماعة أبو عياش التونسي، يقول بأنه يريد صاحب السيارة الزرقاء ومن كان معه وقال بأنهم لا يريدون مني شيئاً وأنا أخبرته بأن ينتظر، إذا علموا أن أبا فايز ليس هنا سنذهب جميعنا بخبر كان والله وحده أعلم ما هي التهمة التي يمكن أن أتهم بها أنا وأنتم، علمت منك يا أبا إياد أن الشباب مناوئون للحكومة وبالتالي ليس عندكم مشكلة مع «أبو عياش»؛ من المؤكد أنه سيسألكم بعض الأسئلة ويترككم بحال سبيلكم.

لأول مرَّة ينطق الصبي الصغير:

أعتقد ليس لدينا أي مشكلة معهم، هم بالنهاية جاؤوا لنصرتنا لنخرج لهم.

كشر أبو إياد عن أسنانه وأمسك خالد من حنجرته:

أصلاً منذ أن رأيتك أيها الصبي لم أرَ الخير، من قال إنهم يريدون نصرتنا؟ هه؟ ما أدرانا من هذا أبو عياش ومن أي ديار هو، أم فايز تقول إنه تونسي، إن إخوتنا الذين هم من أصلاب آبائنا لم نعد نثق بهم فكيف بهؤلاء؟

تدخلت أم فايز متوسلة وبصوت منخفض:

أبو إياد يستر عرضك ستور عرضي.

حتى هذه اللحظة بقيت ساكتاً ولم أتكلم وأنَّى لي أن أتكلم وكل الخيارات مرة. نظر أبو إياد ناحيتي فأومأت برأسي دلالة أن لا خيار أمامنا، خرجنا وفتحت لنا أم فايز الأبواب وكان قلبي يقفز أمامي وينبض بسرعة، دلفنا من باب البيت الرئيسي لنجد في وجهنا سيارتي دفع رباعي في كل منها أربعة مسلحين يرتدون ملابس أفغانية سوداء واثنان واقفان عند الباب، أحدهما يتكلم بكلام غير مفهوم، علمت لاحقاً أنه شيشاني، لحى طويلة وعلامات في وسط الجباه فهمت أنها من كثرة الصلاة وهكذا قالوا لي، قال الذي يجلس خلف مقود السيارة الأولى ويضع مسواكاً في فمه:

قيدوهم واعصبوا أعينهم وأحضروهم بسرعة هيا.

طريقة أمنية بامتياز كان اقتيادنا وتدخلاً إلهياً كانت نجاتنا.

....

الفصل الثالث

لم يبقَ من القماش إلا ما يكفي لخيمة ومن الماء آخر جرعة، يمكنك أن تحتمل فقدان أب أو أم أو أخ أو ابن وحينئذ سيأتي الناس ليعزوك، ولكن عندما تفقد الوطن فهل هناك خيمة تتسع للعزاء؟

السلام عليكم.

وعليكم السلام.

أريد أن أسأل عن سيدة مقيمة لديكم.

دون أن يجيب بكلمة، أخذ الحارس الورقة من يد السائل، أدار عينيه الكبيرتين وراء الحروف قرأ الاسم بتمعن، وضع الورقة جانباً ورفع سماعة الهاتف:

ألو.

نعم؟

شخص يسأل عن جمانة الحمدان، سكت الحارس قليلاً منتظراً الإجابة، بعد قليل جاء الصوت عبر السماعة، اكتفى بهز رأسه الكبير:

مم، مم، مم طيب، وضع السماعة من يده نظر ناحية السائل:

الأخت جمانة في الخيمة ٥٦٨.

أشكرك ولكن كيف لي أن أصل إلى خيمتها.؟ قال السائل.

مط الحارس شفتيه دلالة جهله ثم أردف قائلاً:

لا أدري يا أخي، ادخل واسأل، من حسن حظك أن التي تسأل

عنها مقيدة لدينا وهؤلاء قلة، في الآونة الأخيرة يتوافد المئات يومياً وقليلون من يقيدون في السجلات أو على الحاسوب، لذلك أنت أكثر حظاً من غيرك.

حسناً، قال السائل.

اقترب السائل من البوابة الحديدية للمخيم، خطا خطوتين أصبح داخل (الحرم) الأول للمخيم، هذا المخيم الذي تؤخذ عادة له صور جوية وتنشر على الإنترنت، كان مثل علب كبريت مبعثرة على وجه الأرض، قطعة حياة موقتة فوق تراب يفترض أنه لوطنك، مكان يجمع فيه المكلومون والثكالى والمحزونون والمشردون وفاقدو الآمال أو من جاؤوا بحجة الأمل، الأمل؟ ألسنا محكومين به كما قال سعد الله ونوس؟.

ما إن تجاوز السائل البوابة حتى شاهد مجموعة من الأطفال عراة يلعبون بكرة من الغزل، تقدم قليلاً ليجد مشهد الخيم المتراصة بعضها بقرب بعض كالفطر، روائح الصرف والمياه الآسنة تفوح في المكان، مجموعة من العائلات تنظف خيمها وتحاول أن تكنس القليل من الأغبرة التي تجمعت أمام خيمهم ويرشون من أباريقهم وسطولهم القليل من الماء ليخمد الغبار، وضع السائل يده على أنفه محاولاً أن يقي نفسه من فظاعة الرائحة ومضى باتجاه أول شاب رآه:

عفواً؟، أبحث عن الخيمة ٥٦٨ هل تستطيع أن تساعدني على إيجادها؟

وليش حاطط ئيدك على منخارك؟ ئرفان؟

أزاح يده بسرعة واعتذر:

أنا آسف ما كنت أقصد، تلعثم.

لا تهتم، أصبحنا مصدراً حقيقياً للقرف، الله يرحمك يا ستي

آمين.

نظر إليه الشاب وتفحصه بتململ ثم قال:

كانت ستي اتقول للواحد اذا موعاجبها (الله يسترك بالموت قبل ما حدا ايموت) صرنا نتمناها صدقني.

أطرق رأسه إلى الأرض:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

على كل الأحوال لا تهتم، ابق سائراً بشكل مستقيم، خيمة، اثنتان، ثلاث، ثم تجد مجموعة من البسطات، هناك عاود السؤال ثم ابتسم.

جزاك الله خيراً، قالها وأسرع ولم يجرؤ أن يمسك أنفه بإصبعيه هذه المرة.

مضى وهو يقوم بالعد، واحد، اثنان، ثلاثة عندما عد الواحد، كانت امرأة تقوم بتنظيف آنية من الألمنيوم من الواضح أنها طبخت فيها منذ قليل فوق الحطب، (الشحوار) الأسود يغطي قعرها، لفَّت وجهها بوشاح أسود ورفعت ثوبها قليلاً لكي لا يتسخ أكثر، بنطال من الصوف أسفل الفستان، عندما عد اثنين، كان فتى في الرابعة أو الخامسة عشرة يصلح عمود خيمته بعدما أطاحتها الريح، وعندما عد الثالثة، كان طفل

وطفلة يتشاجران حول علبة فول سقطت من السلة الغذائية لأحدهم وغفل عنها، وصل إلى البسطات، توقف برهة:

يا إلهي إنها سوق كاملة قال.

ضحكة لفتى لم يبلغ العاشرة التفت ناحيته:

بدك علكة؟ الخمسة بعشر ليرات، الله ايوفقك اشتري، طيبات؟

سكت، أخرج عشر ليرات ولم يأخذ العلكة.

أنا لست شحاذاً أيها البيك، خذ علكتك فإنها لم تعد لي وأدار الصبي ظهره بعد أن مسح مخاطه بكم كنزته الكحلية، لم يجرؤ أن يضع إصبعيه على أنفه أيضاً هذه المرة، خفض رأسه وتجاوز البسطات بشكل مستقيم، الكرامة ليس لها علاقة بمقدار فقرك بل بمقدار خسارتك، هناك أشخاص لشدة خسارتهم أصبحوا غير مستعدين لخسارة أنفسهم في مقابل كنوز الدنيا، الخاسرون الحقيقون أولئك الذين يخسرون أنفسهم، ألم يقل السيد المسيح:

ماذا يكسب الإنسان لو كسب الدنيا وخسر نفسه؟ كان هذا الطفل من هذا النوع؛ فنحن الذين نشعر بالشبع، نحن فقط سنكون الخاسرين لأننا لا نشعر بجوع غيرنا.

جلجلت أصوات الباعة وهم يصرخون، فوط للدورة الشهرية، صابون من ماركة (فا)، أرز مكتوب على غلافه (un) معلبات للجبنة والبازلاء والفول والحمص منتهية الصلاحية أو شارفت ذلك، بسطات ينادي القائمون عليها بأن لديهم ألبسة (أخو الجديد)، زاد من سرعته

وزادت الأصوات اختراقاً لعقله، علق التراب بكعب بنطاله، ولوث قليل من الطين قميصه، طفلة في الرابعة تقريباً تعتلي عربة خضار وتبول، وصل أخيراً إلى نهاية البسطات لاهثاً، وجد شجرة سرو منزوية وحدها، اقترب وتقيأ، تقيأ، تقيأ، يد وضعت على كتفه:

خير إنشاء الله، هل أصابك مكروه؟

التفت الزائر ليجد شيخاً مهيباً عمره قرابة الخامسة والستين، عدل من انحنائه، مسح فمه بمنديل كان في جيبه:

لا شكراً، أبحث عن الخيمة ٥٦٨ فقط.

مممممممممم، حرك الشيخ عدة خرزات من سبحته التي في يده، أجال ببصره الضعيف في ما حوله، عدل من قبعة الصلاة البيضاء التي يضعها فوق شعره الشائب، مسح على لحيته الطويلة المصبوغة بالحناء مرتين:

اللهم صلّ على نبينا محمد، أعتقد أنها هناك في نهاية هذا الصف، أترى تلك المرأة السمراء هناك؟

هزَّ الزائر رأسه دلالة الموافقة.

إذاً لم يخيّبني الله، تلك خيمتها الخيمة ٥٦٨.

شكراً يا عم، قال الزائر ومضى مسرعاً باتجاه الخيمة التي دله عليها الشيخ، اقترب وقلبه تزداد نبضاته تسارعاً، أترى هي؟ أترى هي؟ يسأل نفسه، يقترب والشمس تلفح وجهه ووجهها، اقترب أكثر، وظهرت له ملامحها أكثر، غرتها متدلية من تحت شالها الأحمر الموضوع بشكل

عبثي على شعرها الأسود الذي يتدلى حتى منتصف ظهرها، ثوب أخضر غامق يغطي جسدها النحيف، شفتان يابستان ولكن جميلتان مشقوقتان كحبة لوز، وصل أخيراً:

السلام عليكم، قال الزائر.

نظرت إليه وتفحصته من رأسه حتى أخمص قدميه:

وعليكم السلام أجابت، ثم أكملت نشر الملابس على حبل الخيمة دونما اكتراث للزائر.

أختي، هل هذه الخيمة ٥٦٨؟

لست بأختك هذا أولاً، وأما عن رقم الخيمة فلا تسأل فالكل هنا متوحدون بالمأساة، الأرقام لا تهم كثيراً، نفضت الكنزة الصفراء التي تبدو لطفلة صغيرة في يدها ثم أضافت:

عندما تقع الكوارث يا هذا تصبح الأرقام لعدد الجثث والأموال فقط، وكل ما عدا ذلك هوامش على سطور دفترها.

مسح العرق الذي بدأ التصبب من جبينه الحنطي:

أعتذر ولكني أبحث عن السيدة جمانة الحمدان هل تعرفينها؟

في تلك اللحظة كانت قد انحنت لتناول قطعة ملابس أخرى من الوعاء الخزفي المعد للغسيل لتنشرها على حبل الخيمة في جوار الملابس المغسولة الأخرى، توقفت عن فعل أي شيء، انتصبت ونظرت إلى عينيه مباشرة، انعكس بريق الشمس من عينيها العسليتين، عدَّلت من شالها ليغطي الغرة ويبقى على شعرها متدلياً من الخلف:

قل ما لديك بسرعة، ألا تعلم أن من أهم شروط القتل الرحيم سرعته؟

أستغفر الله، قال.

عادت تنحني لتأخذ قطعة الملابس التي تركتها قبل قليل.

أرجوك، قال الزائر.

التفتت إليه، تركت كل شيء من يدها:

ستعذرنا إن استضفناك على بساط وضيع في الداخل أليس كذلك؟

البيت بأهله، قال.

هههههههههه، أطلقت ضحكة كبيرة، خانتك العبارة يا هذا، لا هذا بيت ولا نحن أهله، هذا ما تبقى لنا ونحن ما تبقى منا، هههههههه أعادت الضحكة العالية نفسها:

احفظها عني (باين عليك مثقف).

بدت ملابسه وكأنها غارقة في الماء من شدة تصبب العرق، حار هذا اليوم، الذباب فوق الحبل وفوق الغسيل وفوق أنف المرأة وأمام أعين الزائر.

إذن أنت السيدة جمانة؟

تفضل قالت ومشت أمامه باتجاه الخيمة وكأنها تطلب منه أن يتبعها.

خفض رأسه من أسفل الحبل وتوجه ناحية الخيمة، أزاحت من

أمامه جزءاً من الخيمة كان يشغل مدخلها وكأنه بابها، خفض رأسه مرَّة أخرى وحاول ما استطاع أن لا تلامس ملابسه قماش الخيمة لكي لا تتسخ.

لا تخف على ملابسك، قليل من التنظيف وتعود كما كانت، ولكن احذر على روحك لأنه إذا ما اتسخت، رفعت كتفيها إلى أعلى دلالة التعجب ثم أضافت:

للأسف لم يخترع الإنسان حتى الآن مساحيق لتنظيف الأرواح!

معك حق، قال الزائر ثم وضع يده في جيبه وأخرج بطاقة تعريف له، ناولها لجمانة وأكمل مسح جبينه بمنديله الورقي، جمانة تقرأ ما في البطاقة والزائر ينظر إلى المنديل، خيط أسود اختلط مع قطرات العرق التي مسحها.

عمران الأيوبي، صحفي، هزَّت رأسها ومطت شفتيها، استدارت إلى الخلف وجلست على الفراش الممدود على أرض الخيمة:

انظر يا هذا، إن كنت هنا لتسجيل سبقٍ صحفيٍ أو تدوين تحقيقٍ صحفيٍ خطيرٍ عن حياة الخيام واللاجئين، فإنه عليَّ أن أخبرك أن كل الخيام التي تنتشر هنا متشابهة في مأساتها وإن اختلفت في شكلها أو مساحتها أو لونها أو عدد قاطنيها، لقد كان الله عادلاً في توزيع البؤس على هذه الخيام لا تخف، ثم عدَّلت من شالها ورفعت إصبعها قبالة وجهه ثم أضافت:

ما عليك إلا أن تنصب قامتك الوسيمة وتعد حجرة بقرة قلي عمي

عد للعشرة واحد تنين تلااتة وهكذا الخيمة التي سيرسو عليها الرقم عشرة ادخل إليها لست بحاجة إلى الخيمة ٥٦٨ تحديداً صدقني، ثم أعادت البطاقة إليه وقد زاد تلعثمه، سررت بلقائك ولكن عليَّ أن أكمل نشر الملابس لكي تجف.

خفض رأسه قليلاً ثم رفعه بعد أن أعاد مسح جبينه:

المسألة ليست كذلك.

إذا؟، قالت.

معي أمانة ويجب أن أوصلها إلى السيدة جمانة الحمدان.

تغيَّرت ملامح وجهها فجأة، انتظر، بلهفة قالتها، ثم هرولت إلى خارج الخيمة وأحضرت كرسياً خشبياً مكسور الظهر، مسحته بخرقة بالية كانت معلَّقة على عمود الخيمة.

تفضل بالجلوس، جلس وتنهد.

أنا جمانة الحمدان، تفضل قل ما لديك ولا تتردد قلت لك أرحم القتل أسرعه، مدَّ يده إلى الحقيبة الجلدية السوداء الصغيرة التي كان يحملها، أخرج مظروفاً أبيض اللون عليه بعض الوسخ ومد يده ناحية جمانة:

تفضلي، هذا أول جزء من الأمانة.

تناولت المظروف متعجبة، فتحته، مجموعة من الأوراق مكتوبة بخط اليد، فتحت أول ورقة، شهقت، هذا خط وسيم قالت، لم يرفع رأسه إلى الأعلى، عادت وكررت هذا خط وسيم، عادت إلى الوراء

قليلاً وجلست على الفراش الرقيق الممدود على أرض الخيمة وبدأت تقرأ.

سيدتي، هذه رسالة من زوجك، صديقي وسيم النجار، الملازم الأول وسيم النجار، وقد أعطاني الرسالة كأمانة كي تصل إليك وتقرئيها.

لم تعلّق، تحجرت عينها كقطعة من الكريستال، وجهها الأبيض الذي كسته شمس المخيم ولطخه غباره بسمرته الترابية أصبح غريباً، لا سرور ولا حزن، لا بعد ولا قرب، لا إحجام ولا إقدام، وعمران يراقب الوجه بخشوع، خفض رأسه وعينيه وأصبح ينظر بين رجليه:

يا إلهي! قال بصوت منخفض، ما أصعب مهنة ساعي البريد!كم هي صعبة تلك المهنة، لقد أفقدنا البريد الالكتروني شهية الانتظار وأفقدتنا وسائل التواصل التي باتت أكثر من الرمل متعة التلهُّف على مشاهدة خط من تحب، لكن الظروف منحت عمران أن يكون ساعي البريد هذا، انقطاع الكهرباء والاتصالات عن المناطق الشمالية للبلاد أعاد إلى الرسائل الورقية بريقها ولمعانها، وكرَّس لعمران عذابه، لم يكن يرغب قط في تمثيل هذا الدور أو لنكن دقيقين في القيام بهذه المهمة، حمل رسالة ما هي إلا «نعوة» بشكل أو بآخر من رجل لامرأته، كان مدركاً أن الصحافة مهنة المتاعب ولكن لم يكن يتصور قط أن تجبره أن ينقل كلمات كل حرف فيها مدية ستقطع قلب قارئها.

أمسكت الورقة كمن يصلي، تقرأ وتقرأ وتقرأ وتقرأ وعمران

يسمع حفيف الأوراق ولا يرفع رأسه ليشاهد أي شيء من ملامحها، كان خائفاً، إن مشاهدة القهر أصعب من أن تعيشه وكذا الموت، كم مؤلم مشاهدة الموت كل ساعة وأنت عاجز عن فعل أي شيء، فكر في ذلك بينما جمانة تقلب صفحات الرسالة، صفحة، صفحة، وهو يعدها ليتكهن أو ليحدد اللحظة التي عليه أن يرفع رأسه بها، واحد، اثنان، ثلاثة، ولا يصل إليه إلا أنفاس جمانة التي تخترقه كرمح، أربعة، خمسة، ستة، وأنفاسها تتسارع، سبعة، ثمانية، تسعة، ها قد اقتربت من الانتهاء قال في نفسه، انتظر قليلاً ثم رفع رأسه، تلاقت عيناهما وكأن غيمتين التقتا ليمطر وسيم بينهما، عدَّلت من جلستها، ودمعة واقفة كحارس ملكي على باب عينيها وضعت الأوراق بجانبها:

أكمل أمانتك، قالت.

أنا عمران الأيوبي، كما قرأت في البطاقة، صحفي بريطاني من أصل فلسطيني، وقد حضرت إلى الشمال لأقوم ببعض التغطيات الصحفية والميدانية عن الأوضاع بشكل عام وقد كان وسيم المسؤول عن مرافقتي طوال الوقت، أو لأقل بشكل أدق إني لم أثق إلا به لكي أرافقه، أنت تعلمين أنّ جنسيتي البريطانية تسيل لعاب كل تجار الخطف في هذا البلد في الآونة الأخيرة، أعاد مسح جبينه من العرق، نظر مرة أخرى إلى وجهها، دمعة واحدة نزلت رغماً عنها من عينها اليمنى على خدها الذي أصبح فضياً ترابياً، دمعة واحدة مرَّت فوق الخد لترسو عند شفتها العليا بكل خشوع، لم تمسحها، أخرج منديلاً من جيبه وناولها إياه:

امسحي دمعك من فضلك، قال.

شكراً، لدي ما أمسح به ومسحت دمعتها بكفها.

أتعلم أن وسيم كان يمنعني من مسح دمعتي؟ كان يقول لي:

جمانة وجهك أجمل عندما تبكين، ابكي فرحاً لكي أسعد بوجهك ثم أجهشت بالبكاء.

أطرق رأسه قليلاً، نظر ناحية خيط الشمس المنساب من ثقب في سقف الخيمة:

يبدو أنه محق، قالها بصوت خفيض، ثم أكمل:

سيدتي جمانة، لقد طلب مني أن أكمل لك ما لم يتسع الوقت ليكتبه في الرسالة، فإنه كما قرأت وصل إلى مرحلة معينة في الكتابة، ثم اندلعت معركة كبيرة جداً في المحيط الذي كان يرابط فيه وسيم وهناك لم يعد لديه الوقت قط ليكمل الكتابة، لذلك وفي أثناء نوبات الحراسة التي كان يشرف عليها بصفته ضابطاً كنت أرافقه لألتقط أفلام وفيديوهات للمعارك لأرسلها إلى وكالة الأنباء التي أعمل بها وكان يقول لي ما يجب أن يكتبه لك وها أنا هنا أشكر الله أني استطعت الوصول إليك.

نعم وأنا كذلك أشكر الله، ولكن على كل شيء يا سيد عمران، حيث لا يحمد على مكروه سواه عدَّلت من جلستها وطلبت منه أن يكمل.

حسناً، أولاً وقبل أي شيء أين رزان؟

تنهدت جمانة:

رزان؟ لم أسمها رزان.

بدت على ملامح عمران المفاجأة:

لماذا يا سيدتي ألم تقومي بتسمية ابنتكما برزان؟

كان الاسم وعداً أو بشكل أدق كان عقداً بين اثنين، كنا متعانقين وكانت أنفاسنا تتعانق أيضاً، وكان بخار الليل منزوياً حولنا وحارساً لنا وكان رأسي على صدره أو لكي أكون دقيقة، كان رأسي على كتفيه، هل تعلم كم أحببت كتفيه؟

نظر عمران ناحيتها ولم يجب.

سأقول لك، شردت قليلاً ناحية خارج الخيمة، رفعت يدها قليلاً ناحية جبينها، لمسته بلطف ثم أعادت ترتيب شالها:

كنت أرى كتفيه محطاً للنجوم، مكاناً لتجمع الأضداد، صخرة كبيرة تصلح لكي تحط مركبة فضائية غريبة فوقها، كل يوم عندما يستيقظ الصباح وهو بقربي يخلع ملابس النوم ليرتدي ملابس العمل أتركه حتى يخلع قميصه ثم أقف أمامه وأشم كتفيه، جزءاً، جزءاً هكذا، ثم بدأت تسحب أنفاساً متقاربة وأغمضت عينيها كأنها تشم كتفيه، ثم عندما أصل إلى نهاية كتفه اليسرى أقبله، أقبله، أقبله بين عشر إلى عشرين قبلة حتى ينظر إلي ويدفعني برفق لكي يبعدني عنه ثم يقول لي:

بسسسسسسس بدي روح عالشغل، رفعت صوتها قليلاً حتى بانت نبرتها نبرة تحد:

هذا الرجل هو من تعاهدت أنا وإياه أن ننجب فتاة نسميها رزان، فإن كنت تسأل عن الفتاة التي ولدت من نطفة ذلك الرجل، والتي اتفقنا أن نسميها رزان فتلك ماتت مع غياب ذلك الرجل، أما إن كنت تسأل عن الفتاة الثانية التي خلفها والدها وراءها وتركها دون أن يعلم أصلاً أنها أتت على هذه الدنيا أم لا، وإن جاءت بنتاً أم ولداً أصلاً والتي حتى الآن لم أضطر أن أعلمها كلمة (بابا) فهذه موجودة أتريد أن ترى الأولى أم الثانية؟

علي أن أكمل الأمانة لتعلمي ما جرى معه، كل شيء فعله من أجلكما، صدقيني من أجلكما، قال ذلك كأنه يدفع تهمة عن نفسه.

سأجعلك تكمل أمانتك ولكن من باب الفضول فقط صدقني، ما ينفعني إن تبنى وسيم كل قضايا الكون ونسيني أنا وابنته نحن يا هذا نحن أتعلم؟ نحن فقط قضيته الكبرى.

تنهد عمران قليلاً، أعاد مسح جبينه من تصبب العرق الذي زاد بشدة بسبب جو الخيمة الشديد الحرارة ثم قال بشكل مرتبك:

لا بأس، أنا مهمتي أن أوصل إليك الأمانة علّك تجدين شيئاً فيها يجعلك أقله تسامحينه أو لنقل تصفحين عنه، لا لا لا، أعتقد أن العبارات تخونني، لنقل أقله تتفهمين موقفه ذلك.

حسناً، قل ما لديك، سترى البنت لاحقاً، قل يا عمران في عينيك كوارث نائمة ألا تلاحظ أني أحاول جاهدة أن لا أستعجلها؟ ولكن مع ذلك هي ستأتي، فقل كي أنتهي من هذا الأمر أو أنتهي.

سحب نفساً عميقاً، هشَّ ذبابة حاولت أن تحط على أنفه، نفث الهواء من رئتيه:

جمانة، كما قلت لك لم تسعفه المعارك كي يكتب لك بقية ما تبقى من الرسالة، لذلك قالها لي وسأكون أميناً في نقلها.

هزَّت برأسها دلالة الموافقة.

لقد وصل برسالته إلى اللحظة التي وصل إليها إلى ذلك المنزل بعد ركضه الطويل في تلك الليلة أليس كذلك؟

نعم، هكذا قرأت، قالت.

جيد، بعد أن وصل ألقى التحية ثم طلب جرعة ماء، دخلت الفتاة قليلاً ليخرج والدها بعد قليل، ابتسم وسيم له وألقى عليه التحية هو أيضاً، تفحص الرجل وجه وسيم بعد أن رد عليه التحية وقدم له كوز الماء، شرب حتى ارتوى، أعاد تفحص عينيه وركز عليهما:

شكراً يا عم.

عفواً، ثم أضاف الرجل:

إلى أين وجهتك؟ أجابه بأنه متجه نحو الطريق الدولي وأنه قد أضاع الطريق، سكت الرجل برهة ثم قال له:

من هنا الطريق الدولي وهذا أقصر طريق ولكن ثمة حواجز للجيش منتشرة بكثرة، ثم أشاح بوجهه الرجل جانباً وأشار بيده إلى الناحية الأخرى ثم قال:

ومن هنا أيضاً الطريق الدولي، ولكن الطريق خالٍ وهو بعيد قليلاً أما من هنا وعاد يؤشر بيده ناحية الطريق الآخر ثم أضاف:

أما من هنا فهذا طريق القرى الأخرى، القرية الفلانية والفلانية والفلانية ثم سأله إن كان يريد شيئاً آخر، شكر وسيم الرجل واستأذنه لكي يرحل ولكن الرجل استمهله قليلاً:

لحظة من فضلك قال.

انتظر وسيم، غاب الرجل برهة، قلق وسيم وبدأت الهواجس تأخذه إلى أماكن بعيده، لعلّه سيبلغ عنه السلطات، لعلّه يريد إيذاءه أو جلب سلاح لينقض عليه، عاد الرجل ومعه كيس صغير:

يبدو عليك التعب، (من خير الله ثم خيرك) خبز وقليل من الزيتون والجبن تفضل ومدَّ يده ليناول وسيم الكيس، خجل وسيم من هواجسه وشكر الرجل ومضى وفجأة عاد صوت الرجل قوياً بعيداً قليلاً:

هي أنت؟

التفت وسيم، لقد بدَّلت كل ملابسك ولكنك نسيت الكنزة الخضراء العسكرية التي ترتديها تحت قميصك، أنصحك بتبديلها، ربنا يحميك وأدار الرجل ظهره وبكى وسيم ومضى في طريق القرى الذي دله عليه الرجل.

وماذا بعد؟

مضى في طريقه، لا شيء يؤنسه إلا طيفك، تلعثم قليلاً آسف ولكن هكذا طلب مني أن أنقل إن كان ذلك!!!!

قاطعته:

لا عليك، أكمل بعد كل ذلك الذي جرى لي، الحياء آخر ما صرت أفكر فيه، أكمل يا سيد أكمل.

مضى في طريقه كما قلت لك، ولم يعد أمامه سوى أراض خالية أو بساتين لأشجار الزيتون أو التفاح، البرد شديد وقد أنهكه التعب، بدأ يشعر أن كل الأشياء تطارده في هذا الكون، لا يعرف أين أو إلى أو من أين يجب أن يسير، هل يعود ويصبح هناك تحت مساءلة أكبر ويغوص في بركة الدم التي بدأ يشعر أن قائده يريد أخذه وأخذ الجنود والبلد إليها؟ مشاعره اضطربت، جلس على حجر، أخرج محفظته وتأمل صورتك، لقد قال لي إنه قبلها وقبلها وقبلها وبأنه يحبك وأحبك جداً، أشاحت بوجهها جانباً، تنفست بقوة وأكملت بكاءها، بعد ذلك نظر في ساعته وحسب الوقت وجد أن عليه أن يصل إلى أي هدف آمن قبل الصباح ولكن أي هدف؟ عدد من الساعات بقي له لا أكثر وكثير من الجزع وأكثر من الخوف، مولّه بقضيته، أنت تعلمين ذلك صحيح؟

لم تعلق، اكتفت بإيماءة له بأن يكمل الكلام.

بعد أن أكمل سيره بحوالى الساعة لمح مصباحاً بعيداً نسبياً ولكن يبدو أن بشراً هناك سار باتجاهه، وصل إلى هناك بعد منتصف الليل بقليل، كان ورشة لتصليح الإطارات المثقوبة للسيارات على طريق فرعي يصل بين مجموعة من القرى، اقترب ليجد صبياً في السادسة عشرة من عمره:

السلام عليكم.

وعليكم السلام.

هل أجد لديك هاتفاً ثابتاً؟

سكت الصبي قليلاً ثم أجاب:

نعم، تفضل.

رفع السماعة واتصل بمحمود صديقه القديم هل عرفته؟

نعم، أجابت.

اتصل به وأخبره بما حل به وأعطاه العنوان بالتفصيل، يبدو أن لمحمود أقرباء في إحدى القرى هناك، اتصل به وأعلمه أنه وقبل الفجر ستأتي سيارة لتقله إلى هناك.

وماذا جرى بعد ذلك؟ سألت.

جرى أمر غريب يا سيدة جمانة، بعد أقل من خمس دقائق استأذن الصبي وسيم لقضاء حاجة ما خارج المحل وبعد أقل من ثلث ساعة توقفت سيارة بالقرب من الورشة كانت من نوع كيا ريو على ما أظن أنه قال لي.

إي؟

ترجل منها ثلاثة مسلحين وتقدموا إليه وكان سؤالهم مباشراً وقبل السلام أو التحية:

إلى أين أنت ذاهب؟ وجوههم الواجمة، لحية طويلة تعتلي وجه اثنين منهم وشعر قصير، الشابان طويلا القامة والثالث رجل خمسيني يرتدي ثوباً بني اللون، فزع وسيم وارتبك، بعدها وضع الرجل الخمسيني يده على كتف وسيم:

لا تخف يا ولدي، أنا مالك هذه الورشة وولدي ذهب يخبر عنك

السلطات، تنهد الرجل قليلاً ثم بصق (ولد واطي طالع لخالو)، لا تخف أبداً سيقلك الشابان إلى مكان آمن.

رفع عمران صدره ثم أردف:

هنا لم يعد أمامه خيار آخر يجب أن يصعد معهما وبعد أقل من ربع ساعة قرأ لوحة مكتوب عليها (الريحانة الشرقية) وهنا ارتاح وعرف أنه يتجه ناحية القرى وأنه في المكان الصحيح.

فهمت، فهمت كيف وصل إلى تلك (الزريبة)، ولكن بالله قل لي يا سيد عمران، هل مبرراته بالرسالة على عدم التواصل معي أو إخباري أي شيء منطقية؟ هل تركه لي وأنا حامل وذهابه بهذه الطريقة العبثية يمكن أن يبرره أي شيء في العالم؟

صدقيني هو لم يتركك قط، لقد كان ملاكاً حارساً لك، ولكن كان يتحاشى التواصل معك لتلك الأسباب الرئيسية التي أصبح كل الناس يخشون على عائلاتهم منها، وهي أن يسبب لكم الأذى بالدرجة الأولى وأن يؤدي تواصله معكم إلى كشف المكان أو الحصول على أي معلومة تؤدي إلى الإجهاز عليه، لم يترك له القدر الفرصة ليكتب لك أكثر، كان يريد أن يقول إنه كان يتابعك وإنه علم بولادة رزان وإنه خاف عليك كثيراً وكاد يتصل بك ليسمع صوتك عندما أغمي عليك في المنزل وتم نقلك إلى مشفى الرحمة ليلاً من قبل جاركم أبي نبيل، ووسيم أيضاً كان يهمه جداً أن تعرفي أنه غضب جداً عندما علم أنك قررتِ يوماً العمل بشركة خالد الصياح ذلك المهندس القذر، صدقيني

يا جمانة كان يتابعك. صحيح أنه في الفترة الأولى لم يستطع أن يتقصى أخبارك، لكن في ما بعد أصبح يتابعك خطوة خطوة، حتى عندما كان يكتب لك الرسالة، خشي أن تقع الرسالة بيد أحد فأصر بكل حرف من حروفها أن يتجاهل معرفته بشيء عنك، لقد كان بينكما وعد رائع وعقد فريد ولكن ما تستطيع أن تفعله ساقية الدار أمام صخرة العمر؟ بركة ماء خلفها؟ لقد تهشَّم كل شيء يا جمانة ولم يبقَ إلا حبكما القديم العتيق الباقي أليست هذه عبارتك؟

عادت تشيح بوجهها نحو البعيد، خارج الخيمة، صمتت ولم تجب، ما زال ألمها أكبر من قدرتها على الصفح أو العفو أو التجاوز، الألم شظية الحياة ما إن دخلت حتى أتلفت ما حولها واستقرت.

بعد ذلك وعند وصوله إلى الريحانة الشرقية وبعد مكوثه الطويل عند أم دياب وبعد رحلته نحو الحدود ووصوله إلى قرية السماقية، استطاع تشكيل فصيل صغير من المقاتلين، كان منهم عدد من المنشقين عن الجيش وعدد من المتطوعين من أهالي القرى الذين قرروا المواجهة المسلحة مع الحكومة وبدأ وسيم مع فصيلته القيام بعمليات حرب عصابات ضد القوات الحكومية الموجودة في المنطقة هناك، ضرب دورية هنا، مهاجمة مخفر شرطة هناك، خطف أحد المتعاونين مع الحكومة ومبادلته بمعتقلين، هكذا كان عملهم في البداية، وبعد كل عملية من هذه العمليات كانت تقع أحداث انتقامية من اقتحامات أو ما شاكل، وكان وسيم وزملاؤه في ضيق شديد، اختفاء واختباء وتنقل

من منزل إلى منزل ومن قرية إلى قرية ومن جبل إلى جبل، كانت أياماً صعبة، صاروا يشعرون أن الهواء نادر وقليل وصارت القرى تروي عنهم وعن بطولاتهم الحكايا، تعففهم، رفضهم الاستقواء على الناس أصبحوا فرساناً وكان أبو مدين في نظر الناس ذلك العملاق الذي لا تطال هامته.

أبو مدين؟ سألته محاولة الاستفهام.

أبو مدين هو الاسم الحركي للملازم وسيم النجار، زوجك، وقد اشتهر به بالمنطقة كلها وأصبح حديث الشارع، صحيح أن هناك الكثيرين ممن اعتبروه بأنه يجر المنطقة إلى الخراب وبأن تلك الحرب ستؤدي حكماً إلى إهلاك الحرث والنسل، ولكن الأغلبية كانت معه وتصطف خلفه حتى جاء ذلك اليوم الذي حضر شخص غريب إلى المنطقة وأعلن أنه يقف إلى جانب القضية التي يحملها وسيم ورفقاؤه وبأنه يحمل الخير لهم، يومذاك لم يستسغ وسيم قدومه واعتبره غريباً عن البلاد وأنه لا يجوز قبول أية مساعدات منه إلا إذا عرف تماماً نيته وماذا يريد ومن هو على وجه الدقة، أنت تعرفين وسيم لديه حساسية مفرطة من الغريب وتدخله بين الأقرباء.

ولماذا أرسلك إذن ألست غريباً؟

الحرب تخلق القربى فجأة، صدقيني وتفسخ عرى قرابات قديمة. عليك أن تعرفي أعداد الأخوة الذين قتلوا بعضهم بعضاً حتى الآن في بلادكم كي تصدقيني، لا مكان في الحروب وأمام القضايا الكبرى

لدفاتر العائلات وبيانات الولادة وسجلات قيد النفوس، في الحرب أنت معي أو ضدي فقط.

هزَّت رأسها دلالة الاقتناع:

يبدو أنك محق وماذا جرى بعد ذلك؟

للأسف هناك من رفضوا تأييد وسيم برأيه وموقفه واعتبروه متشدداً واعتبروا بأن قضيتهم أصبحت عالمية وبأنهم في ضائقة كبيرة وتعالت الأصوات المطالبة بالتسلح، كل الحجج كانت موجودة، قمع حكومي وتقاعس من المجتمع الدولي وشباب يدخلون إلى المعتقلات ويخرجون حاقدين وكارهين للنظام أكثر من الشيطان، كل المناخات لتسليح الشباب توافرت،و هنا بدأت الفوضى، إذ دخل السلاح عبر الحدود بشكل فوضوي وغير مدروس وكثر هؤلاء الغرباء وتشكلت طبقة جديدة من المدنيين الذين لا يملكون أي دراية عسكرية أو إدارية. صحيح أن القوات الحكومية أصبحت تتعرض لهجمات أكبر ويقع بينها خسائر أكبر وكان هذا ما يجعل لهذه المجموعات حباً في قلوب الكثيرين وشرعية من الناس ولكن حقيقة كان كل شيء يتمزق، في تلك المرحلة أنا تعرفت إلى وسيم وقد أتيت حقاً للقيام بالمهمة الصحفية التي حدثتك عنها، وكان فعلاً يشعر بالقهر والخوف وأكثر ما كان يخشى حدوثه هو الدخول في الفوضى وإهدار كل التضحيات التي قدمها الناس حتى تلك المرحلة، وفعلاً كان هذا ما يحدث رويداً رويداً أمام عينيه وكل يوم كانت قدرته على منع هذه الفوضى

تنحسر وتقل، سيول من الأفكار من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بدأت بالتدفق وكل فكر وراءه جهاز استخبارات لدولة وخزينة أموال لأخرى ومستودع سلاح لثالثة، كل شيء أصبح متشظياً ولم يعد هناك أي قدرة على فعل شيء، وقع وسيم والذين معه بين مطرقة الصراع مع القوات الحكومية وسندان أمراء الحرب والدخلاء وطبقة اللصوص التي استغلت الفوضى وأصبح هو ورفقاؤه غير قادرين على ضبط كل شيء، سرقة هنا وخطف هناك واغتصاب بين البساتين، أصبحت الأمور مقرفة، حقول النفط تتساقط الحقل تلو الحقل والبئر تلو البئر وأمراء الحرب يتاجرون بها مع المافيات وأصبحت أموالهم تتكدس وتتكدس ووسيم ورفقاؤه يضعفون اليوم تلو الآخر بسبب شيء واحد (وضوح بوصلتهم وهدفهم) وتبقين أنت ورزان هاجسه الدائم وطيفكما لم يفارقه قط وكلما رأيته شارداً وسألته ما به، ينظر إلي ويقول:

أقسم بالله كل شيء من أجلهما ومن أجل النساء والأطفال مثلهما، والله من أجل وطن أجمل هكذا كان يقول.

حدَّقت إلى سقف الخيمة، إلى ذلك الثقب الذي يدخل شعاعاً من الشمس ويرسم بقعة من الضوء على أرضها الترابية هزَّت رأسها:

نعم وطن أجمل، أكمل لو سمحت.

هل لي بكأس من الماء؟ آسف إذا أزعجتك، قال ذلك عمران قاطعاً الحديث وهو يجفف عرقه للمرة الخمسين على أقل تقدير.

المعذرة على التقصير، أنت تعرف المفاجأة، قالت ذلك وذهبت

لإحضار الماء، ثم عرَّجت على أقرب بسطة وحصلت على علبة من المرطبات من البائع الصغير الذي يضع علب المرطبات في سطل معدني مليء بقطع الثلج، اشترتها ووعدته بدفع ثمنها عند حلول موعد قبض المعونة من الأمم المتحدة، عادت وقدمت له الماء وعلبة المرطبات.

شكراً، ما كان في داعي اتعذبي حالك، قالها خجلاً.

لا بأس، الكارثة لم تنسنا طباعنا بعد، قالت ذلك باسمة.

ابتسم بدوره، شرب كأس الماء وفتح العلبة، رشف رشفة منها ثم نظر إليها كمن يستدرك شيئاً نسيه:

عفواً منك ألا تريدين أن تشربي؟ سألها.

لا شكراً اليوم الخميس، صائمة إن شاء الله.

جيد، تقبل الله قال ذلك ثم أكمل:

قلت لك إنه في الآونة الأخيرة شنت القوات الحكومية هجوماً واسعاً جداً على المناطق التي يوجد فيها وسيم وكان في تلك المناطق عدد كبير من الفصائل بتسميات وخلفيات فكرية مختلفة، ما إن بدأ الهجوم الواسع والكبير حتى تلاشت معظم تلك الفصائل ولم يعد لها وجود، بعضهم تجاوز الأسلاك الشائكة للحدود وبعضهم سلم سلاحه فوراً عبر تسويات رخيصة وبعضهم اختبأ وبقي الصادقون يقاتلون، يقاتلون فقط لأنهم صادقون ولا أخفي عنك قليلون جداً الذين يعرفون لماذا أصبحوا يقاتلون، كان هناك هيجان عام ورغبة في القتال والقتال

حتى النهاية، كانت هناك رغبات عامة، قواسم مشتركة للدافع وراء الموت، الجنة ولكن كان هناك خيط بسيط رفيع بين الرغبة في الموت والرغبة في النضال، أصبحت الجنة ذلك الحلم الذي سيخلصهم من نار الأرض، من نار الخذلان، من نار الهزيمة تلو الهزيمة، من نار غياب مستقبل أو طموح، كان مستقبلاً معتماً ينتظر معظمهم فأصبحت الجنة طموحاً مشروعاً في ظل هذه الحياة الجحيمية،ماذا تريدين من هذا السيل العرمرم من الشباب الفتي الذي تفرزه أمتهم كل عام؟ أراض محتلة في كل مكان، هزائم تلو الهزائم قعود وفشل في كل شيء، كان كل شيء يعود إلى الوراء، لا فرص عمل ولا كرامة وطنية ولا شيء يذكرهم أصلاً أنهم كانوا يوماً أمة، كل الأمم تتقدم وهم يتراجعون، كل الأمم تتكتل وهم يتفتتون عندما تصبح الرغبة في النصر مرضاً وعندما لا يتذكر جيشك الوطني أن لديه رصاصاً إلا في وجهك، كان كل الشباب لا يقولون إلا هذه الكلمة، كلما حدثت أحدهم عن حسرتي على رؤية دبابة للجيش الذي يفترض أنه جيشهم واسمه يفترض اسمهم يصرخون جميعاً بأعلى أصواتهم:

وهل كان جيشنا يوماً؟ ألم يكن علينا دائماً؟ دماره أولى إذاً.

المهم، اقتربت القوات الحكومية أكثر من القرية التي يرابط فيها وسيم وكانت النيران تهطل مثل المطر، كانت معركة شرسة وكنت أصور مشدوهاً، لا أدري كيف أتتني الشجاعة لكي أصمد وأصور ولكن كان وسيم أمامي بكتفيه وبصدره الواسع وعليَّ أن أخبرك أنه

وبعد أن تعافى وعاد حاملاً سلاحه، وضع النجمتين على كتفيه وحلق لحيته وقرَّر، نعم يا جمانة هو لم يقل لي إنه قرر بل رأيت ذلك القرار في عينيه، في سوادهما وفي انتصاب قامته وفي أناقته أتذكرينها؟

لم تجب، كانت شاردة، ذلك الضوء الذي يدخل من ثقب الخيمة، خف بل ذهب، سحابة صيف كانت قد مرَّت وأخذت الضوء معها.

حمل سلاحه وجمع رجاله، لم يلقِ خطبة عليهم ولم يحمّسهم كانوا مستعدين، كانوا كأنهم ينتظرون جراحه لكي تجف وتشفى، كانوا يريدون أن يروا فيه ما لم يروا في غيره، يريدون رجلاً في تلك اللحظة الأخيرة لا يخذلهم أتسمعين؟ هو لم يحاول خذلانك وأنا لا أدافع عنه كان يريد أن يحميك بكتفيه ويحمي من يحبهم، كل الذين يحبهم، شعبه وأهله أتذكرين كلامه؟

ما زال الضوء غائباً وما زالت عيناها تجوبان داخل الخيمة وهي تستمع وتستمع وتفكر، نهضت من مكانها، غادرت الخيمة دون أن تستأذنه، غابت خمس دقائق وعادت، مدَّت له يدها وعليها طفلة صغيرة يزعجها الذباب وضوء الشمس الذي عاد يدخل من ذلك الثقب:

هذه ابنتنا، قبلها.

تشبهك، قال.

وصية والدها أنسيت؟

قبلها وحملها، غفت على صدره، لوثت قميصه بلعابها، حرَّكت وجهها قليلاً، يميناً ويساراً، ثغرها التوتي الصغير، ووجهها الأبيض

النقي الذي سمرته حرارة المخيم، حركتها الطفولية التي تدل على تململ من غريب يحملها، قبلها عمران ثم عانقها أكثر .

جميلة أليس كذلك؟ قالت.

أي شيء له علاقة بوسيم جميل، أجاب.

غفت الطفلة على كتفه وكأنه فراش من ريش النعام، احتضنها بحنو وصمت قليلاً.

أكمل، قالت.

راح يربت ظهر الطفلة كي تهدأ أكثر، هدأت، ثم أكمل:

أصبحت تتقدم القوات المقابلة من عدة محاور، والطيران في الجو لا يهدأ أبداً، قصف ودمار وقذائف وصواريخ ومكبرات صوت تدعو المقاومين للاستسلام وأنا أصور ووسيم أمامي يقفز من جدار إلى جدار ومن متراس إلى متراس ويوجه بقية عناصر المجموعة عبر اللاسلكي، اختراق من هنا وتراجع من هناك، صراع من زقاق إلى زقاق وما بين قناص وقناص والدبابات تتقدم قالعة الأشجار أمامها ومهشمة الأرصفة ومسقطة الجدران وقالعة المتاريس، قال لي وسيم يوماً:

ماذا لو قررنا تحرير أرضنا المحتلة؟ ماذا لو أردنا الهجوم بهذا الجيش الذي أطلق آلته في طول البلاد وعرضها وقبل ذلك لم يكن أكثر من مكان للسرقة والسلب والنهب والفساد، أتعلم يا عمران فوجئت أن لدينا جيشاً، ما الغاية من جيوش فوهاتها بعكس الاتجاه ورصاص بندقيتها بعكس الاتجاه وخوذ جنودها لا تُرتدى إلا بعكس الاتجاه.

رابط وسيم على المحور الرئيسي الذي يربط شرق القرية بغربها وسقوطه يعني سقوط القرية كلها ويعني أيضاً سقوط العديد من القرى بعدها، وما زالت الصيحات عبر اللاسلكي تطلب المؤازرة من قبل المقاومين وبعد عدة ساعات كانت الصرخات عبر اللاسلكي أن فصيلاً من أكبر الفصائل جاءته الأوامر بالانسحاب، كانت أوامر وسيم واضحة، نداء إلى كل المقاومين من أراد أن ينسحب فلينسحب نحن صامدون، صمد وسيم وجنده الذين بقوا معه أو الذين بقي معهم كان هناك الكثير من الشباب الطيب الذي يحتاج إلى قائد حقيقي، هؤلاء الشباب الذي لم يعد لديهم مقعد في جامعة أو وظيفة في شركة محترمة فحملوا البندقيه وطموحهم الأول أن ينتهوا من الطاغية أو يذهبوا إلى جنتهم الموعودة، هؤلاء الشباب الطيبون كم ذهب منهم، يا حسرتي على هذا الجيل وضرب بكفه على فخذه.

أصبح العالم كله يتهشم كبلور مكسور تحت أحذية الجنود، والدبابات تجاوزت الخط الدفاعي ما قبل الأخير وصرخات اللاسلكي أصبحت متسارعة، سقط أبو تيم شهيداً، أبو عزام تقبله الله، أبو القعقاع بترت ساقه، عائلة الهاشمي التي رفضت المغادرة سقطت تحت الأنقاض ولا إمكانية للوصول لكي يتم إنقاذها، سحب من الغبار تغطي كل شيء وتأخذ كل شيء ووسيم واقف كشجرة بلوط تنتظر جرّافة تريد اقتلاعها، كل شيء أصبح مشوشاً وهو يمسك سلاحه بيد وجهاز اللاسلكي باليد الأخرى وأنا قريب منه أستمع لصوت اللاسلكي

ومختبئ تحت شرفة إحدى البنايات لكي أتقي انهمار القذائف وكنت أراه نعم أراه، وما دام هو في مجال نظري إذاً أنا مرتاح ولدي شعور كامل بالأمان بأنه موجود وأن الله أرسله لكي أستطيع أن أكمل عملي بأمان، بعد برهة حلَّقت طائرة على علو منخفض، اقتربت، واقتربت كان العلم على جناحها واضحاً وضوح الموت في تلك اللحظة، دوَّت أصوات الرشاشات المضادة للطائرات ارتفع، الصراخ عبر اللاسلكي، أسقطوها، أسقطوها، لم تُصَب ولم تتأذَ، انخفضت وفتحت نار رشاشها على المكان الذي كان يرابط فيه وسيم، ارتفع الغبار، ارتفع بشدة غابت الرؤية، الأصوات عبر اللاسلكي ترتفع، أبو مدين، أبو مدين، حول، سيادة الملازم أول، حول، ملازم وسيم حول ولا صوت، اقتربت أربع دبابات من الخط الدفاعي الأخير لوسط البلدة، مكان مرابطة وسيم ولا أخفي عنك شعرت بذلك الشعور الغريب، بكاء ألم مع قهر ومع رغبة في الهرب، نعم لقد أمضى الليلة الماضية كلها يريد مني أن أوصل إليك الأمانة كان لديه شعور كبير بأنه لن ينجو أو بشكل دقيق بأنه اختار، اختار الطريقة المثلى لكي يموت، اقتربت الدبابات واعتلت المتراس الأخير وسمعت صوت إطلاق نار، وانطلق صاروخ مضادّ للدبابات، وعلت تكبيرات عبر اللاسلكي؛ إنه صوت وسيم، وكما كانت دهشتكِ عندما قرأت الكلمات بخط يده دهشت أنا بدوري عندما سمعت صوته وهو يقول:

الله أكبر، الله أكبر، لم يكن يريد الإجابة عبر اللاسلكي ليوهم

العدو أنه مات ويتقدم وهذا ما جرى فعلاً بقي صامتاً وهادئاً حتى آخر لحظة وكان معه اثنان فقط قد بقيا على قيد الحياة هو وعروة وشاب آخر لا أعرف اسمه، دمروا الدبابة الأولى والثانية، خرج كالعنقاء من رماد آخر خيمة لعرب الشمال، خرج كعقاب فينيقي في وجه مذبحة الرومان، خرج وانتفض وبقي يقاتل، كالساموراي الأخير كآخر مقاتل صيني بمواجهة جنكيز خان على السور العظيم، بقي يقاتل، سقط عروة شهيداً بقربه، صارت رؤيتهما بالنسبة إلي أوضح اقتربت آخر دبابتين، ولم يبقَ إلا هو بعد أن سقط الشاب الثالث، بقي واقفاً، نفدت ذخيرة بندقيته وهو ينتظر آخر دبابتين، فتح باب الدبابة أخرج رأسه جندي ورفع بندقيته ووسيم أستطيع أن أتذكره الآن جيداً، أستطيع رؤية وسيم واقفاً ويمكنني أن أتأكد أنه كان يفكر فيك، لم يعد يفكر إلا فيك، وفي رزان، رفع الجندي بندقيته وأطلق رصاصها، أطلق رصاصها وأنا أشاهد كتفه كيف ارتدت ثم كتفه الأخرى ثم في قلبه، لم يجث على ركبتيه ولم يتراجع ولم يبك بل سقط فقط، كشجرة بلوط سقط، لم تقتله رصاصة ذلك الجندي بل قتله تخاذلهم، هذه كانت جملته الأخيرة عبر اللاسلكي، كانت جملته التي أبكتني وأبكت كل من بقي حياً. كانت جملته الأخيرة لا أقبل أن أبكي على نفسي فإنني سأسقط بعد لحظات شهيداً، ولكن ابكوا على أنفسكم لأنكم ستحيون خونة.

الفصل الرابع

في تلك الحالات التي يتسرب الوطن فيها كالماء من بين الأصابع، وتصبح حتى الأرقام عاجزة عن استقبال أعداد الموتى، في تلك اللحظات بالذات..... الندم لا ينفع

يا إلهي! قالت كارلا وهل آذوكم؟

سكت توفيق قليلاً، أخرج سيجارته العشرين على أقل تقدير منذ دخوله إلى المكتب، أشعلها ونظر إلى وجه كارلا ثم قال:

أتدرين؟ لدينا شاعر مشهور لا بد أنك تعرفينه؟ قال توفيق.

من؟ سألته

المتنبي، هذا الشاعر العظيم يقول:

تعددت الأسباب والموت واحد. ولكن في تلك اللحظات وفي ذلك الوقت الطويل القصير بين اختطافنا من قبل جماعة أبو عياش التونسي وبين خروجي من ذلك المكان، اكتشفت بالدليل القاطع أنه تعددت الأسباب ولكن الموت ليس واحداً مطلقاً، صحيح أن كل الموت هو خروج الروح من الجسد وتوقف أعضاء الجسد عن العمل ولكن هناك موت آخر، موت كل شيء دفعة واحدة، موت القيم، موت الإنسانية والأهم موت الشعور بالعدل وموت ذلك الإيمان بكل ما حمله الإنسان في حياته من معتقدات، في تلك اللحظات التي يغيب فيها كل شيء، القانون والدين و..... هل يحق لي يا آنسة كارلا أن أقول

غياب الله؟ لا أدري ولكن لا بد أن قوة قاهرة تدخلت حتى خرجت من هناك، خرجت من بين براثنهم ولكن لا أعتقد أن تلك القوة قامت بكل ما عليها وبما يجب أن تفعله أو كما يقال (هناك حكمة من وراء كل ذلك).

أستغفر الله، قال حازم.

اكتفى توفيق بابتسامة ساخرة.

أخبرنا بالتفاصيل لو سمحت، حثته بذلك كارلا على إكمال القصة.

بعد أن تم خطفنا وعصب أعيننا بالسواد وإركابنا بالسيارات، حيث أركبوني أنا وأبي إياد في سيارة وأركبوا خالد في سيارة أخرى، أخذ أحدهم مفتاح السيارة الزرقاء العائدة إلى أبي إياد لقيادتها وراء هذا الموكب، توجهوا بنا ناحية طريق فرعي أو هكذا خيّل إلي، إذ إن السيارات لم تكن تمضي بالسرعة المطلوبة، بعد ذلك بحوالى النصف ساعة توقفت السيارات وكان يومها صوت صلاة أعتقد أنها صلاة الظهر، تم إنزالنا من السيارات ووضع كل شخص منا في غرفة مستقلة حتى يتم حضور (الشيخ) الذي كانت مهمته التحقيق معنا و(معرفة نياتنا). انتظرت حوالى الساعة في غرفة لم أستطع أن أشعر بأي شيء بها أو بما فيها إلا المدفأة التي يظهر من رائحتها أنها على الحطب، كنت أسترق السمع إلى الخارج، أصوات باللغة العربية الفصحى وأصوات أخرى بلغات لم أفهم منها إلا الإنجليزية، آيات قرآن، أدعية وهمسات

لأحاديث منها تافهة لا قيمة لها ومنها حول المعارك التي تجري في محيط المنطقة وعن مقتل فلان أو جرح فلان أو تقدم للجهة الفلانية أو انحسار للقوة العلتانية ومنها غير مفهوم أبداً إما بسبب بعد الصوت وإما بسبب اختلاف اللغة أو اللهجة. مضت الساعة الأولى أو ما يقاربها وأنا لم يبق دماء في عروقي، فزع شديد، أكبر كارثة هو الشعور بالفزع في مكان لا تعرف لماذا أنت موجود هنا وما هي الأسباب ومن هي الجهة التي أخذتك، كل ما تعلمه أنها مجموعة (أبو عياش التونسي) ولكن من هو أبو عياش؟ من وراءه؟ من أين أتى؟ هل حقاً هو تونسي؟ الله أعلم، هذه الأسئلة التي طوال فترة انتظاري أحاول ألا أجعلها تعشش في صدري أو في عقلي وكنت أهشُّها كذبابة تحاول أن تزعجني من أذني أو أنفي، العصبة تركت على عيني (للاحتياط) ولكن تم فك وثاقي، فلم يعد يُخشى هربي وكانت التوجيهات واضحة (إياك أن تفك العصبة أو تلمسها) وإلا!!!!!! طبعاً أنا فهمت الرسالة ولم يكن في الإمكان أن أغامر بأي شيء يؤدي في النهاية إلى؟؟؟؟؟، لا أدري ما يمكن أن يؤدي إليه. بعد مضي ساعة ونصف ساعة تقريباً فُتح الباب عليَّ سمعت أنفاس شخصين دخلا، شعرت بأنهما يجلسان، لم يتلفظا ولا بكلمة واحدة وكأني أشعر بهما يتفرسان بي وأنا عاجز عن الرؤية أو محاولة الرؤية، مضى وقت لا أستطيع أن أحسبه يا كارلا أو أن أقوله أو أن أحدده، مضى وقت ما كان يعد بالثواني أو الدقائق أو الساعات، بل بعدد نبضات قلبي وبعدد أنفاسي التي بدأت تزداد لحظة

بعد لحظة، سأصدقك القول لماذا كنت خائفاً، نعم لقد كنت خائفاً ولكن عندما اعتقلت مرة من قبل القوات الحكومية لم أكن خائفاً ولم يكن قلبي سريع النبض ليس لأن هؤلاء أكثر إجراماً من أولئك لا أبداً ولكن هناك سأموت بيد من أعرف سلفاً أنهم أعدائي أو أنهم خصومي وبأنني قررت أن أموت في سبيل قضية وهي أن يكون شعبي حراً وأن هؤلاء يمنعون حرية شعبي، ولكن هنا الوضع مختلف، هؤلاء يقال إنهم جاؤوا لنصرتنا نحن المظلومين الذين لم يأت أحد في العالم لينصرنا فماذا لو مت تحت أيديهم؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟ كم من البشاعة أن تموت بيد من تعتقد أنهم منك ولك؟، مضى هذا الوقت القصير الطويل وشعرت بأن يداً تلامس وجهي، نُزعت العصبة عن عيني، أغمضت عيني قليلاً وفتحتهما حتى تستقرا مع الضوء، توسعت حدقتا عيني في غرفة متواضعة من الإسمنت الرصاصي، مع سرير حديدي في الزاوية اليمنى المعاكسة للباب، وفراشين من الإسفنج رقيقين ممدودين أرضاً، وخزانة قديمة من الخشب مكسور جزء من بابها الأيسر، وشباك حديدي يطل على بستان، وكما قلت لك المدفأة التي تعمل على الحطب وصندوق من البلاستيك فيه حطب مقطوع بعشوائية وبعض الأغطية والشراشف ملفوفة بعناية وموضوعة فوق السرير، ثم تسمرت عيناي بوجهين أمامي، أحدهما لرجل أربعيني أو في بداية الخمسين تقريباً والآخر لشاب في مقتبل العمر لا أعتقد أنه تجاوز العشرين بعد:

السلام عليكم، قال الرجل الكبير.

وعليكم السلام، أجبت.

تفحَّص عيني وشرد لحظات، توقف ومشى حتى جلس على الفراش في زاوية الغرفة، هزَّ رأسه الكبير الذي يكسوه شعر أسود كثيف مربوط على شكل جديلتين على جانبي رأسه، أعاد النظر إلى عيني بتأمل وخشوع يدل على صلابة وبرودة لم أعهدهما في حياتي، لباسه الأفغاني البني اللون، لحيته الطويلة والكثة، وجهه الأسمر البارد، تقاطيع بنيته المليئة وطوله المعتدل، تربع في جلسته وسأل أخيراً:

إلى أين ذاهب؟

إلى تركيا، قلت.

هزَّ رأسه مرة أخرى، ثم سألني:

هل أنت فار من أحد؟ بلعت ريقي ولم أعد قادراً على تحديد موقفي، ماذا كان يجب عليَّ أن أجيب؟ هل عليَّ أن أقول بأنني فار من الجهة هذه أو تلك؟ ماذا لو كان تابعاً لهذه الفرقة وتنكر بثوب الدين؟ أو لهذه الفرقة؟ ماذا لو كان قاطع طريق؟ كيف يمكنني أن أداري موقفي أو أن أتخذ قراراً سريعاً، لم يكن لدي إلا برهة من الزمن لكي أجيب، أتعلمين يا سيدة كارلا صعوبة إيجاد الكذبة التي قد تنقذ حياتك خلال ثوانٍ قليلة؟ أنا كنت هكذا ووجه الشاب يلمع أمامي كانعكاس مرآة، أما الرجل الخمسيني فأخذ يحثني، ها أجب هل ابتلعت لسانك؟ بلعت ريقي مرَّة أخرى وجمَّعت كل قواي وقلت له:

نعم أنا هارب.

ممن؟ سألني.

قلت له بكثير من الاختصار:

من الفوضى وبدأت أشرح له كيف أن المعارك وسيرها لا تترك فرصة أمام الجنود للتفكير (فراح الجميع) البريء وغير البريء، المتورط وغير المتورط، كلهم ذهبوا، نظر إلي بتمعن ثم سألني:

أتصلي؟

أجبته بنعم، قال جيد. ابتسم دلالة قليل من الارتياح ثم سألني:

من الشابان اللذان معك؟

أجبته بما كنا قد اتفقنا عليه سابقاً أن أبا إياد صديق لكلينا، وأنه أراد إيصالنا إلى الشمال لا أكثر وهنا وكأن قنبلة انفجرت أو صاعقة هبطت من السماء، انتصب الرجل الخمسيني وصرخ بلهجة مغاربية واضحة في وجه الشاب، صرخ وقال له:

قيد هذا الكاذب وخذه إلى السجن، ارتبكت وتلعثمت وسقط قلبي مني خوفاً، لم أعد أعرف ما عليَّ أن أقول، حاولت استدراك الموقف والسؤال عن السبب فما كان منه إلا أن لبطني برجله على صدري وفهمت أنه بهذا وكأنه يقول لي اخرس، فخرست فقام الشاب بتقييدي فوراً من يدي إلى خلف ظهري وإعادة العصبة على عيني وطلب مني الوقوف والسير، فعلت كما أمرني وما إن وصلت إلى الباب حتى بدأت جلبة ترتفع وأصوات في كل مكان. أحسست بأني أسير على طريق

الجلجلة وأني سأصلب في نهاية الطريق، تجاوزنا عدة أمتار قبل أن يصل إلي صوت أبي إياد وتوسلات آخر لم أكن أحتاج إلى الكثير كي أعرفه، كان الصوت صوت ذلك الشاب... خالد، ارتشف توفيق آخر رشفة من فنجان قهوته وتفحص وجه كارلا المترقب ثم أكمل:

بعد قليل أوقفوني في وسط ما يشبه ساحة صغيرة أو ما شاكل، ثم سمعت أنفاساً بجانبي، كنت على يقين بأن الأنفاس تعود لأبي إياد أو خالد أو كليهما، أُوقفنا كما أخبرتك بما يشبه ساحة خالية وتقدم منا رجل لم نقدر أن نفهم إلا صوته ولكنته السورية وطلب منا التزام الصمت والهدوء الكامل (لأن الأمير) يريد رؤيتنا، لا أخفي عنك يا سيدتي حتى تلك اللحظة لم أكن أفهم شيئاً، لم أعد أعرف أو لم أعرف من هو الشيخ ومن هو الأمير، رأسي غدا يؤلمني بشدة وما زالت كلمات خالد التي اخترقت مسمعي تتردد كالصدى، كان يصرخ بقوة:

(أرجوكم أنا مسلم) (لا تفعلوا بي هذا) (ماذا فعلت فقط أخبروني) ثم تأوه قوياً ورجاهم بأن يتوقفوا عن ضربه أو جلده لا أدري، ثم بدأت أصواته ترتفع أكثر وتختلط بصوت ترج قوي وهو يقول (سأتوب) (خلص رح توب بوعدكم) ومن دون جدوى حتى توقف صوته واقترب مني هو وأبو إياد وأنفاسهما على مسمعي، لم يكن أي دليل على أن أبا إياد يبوح بشيء أو يعرف شيئاً، بعد برهة جاءنا صوتٌ رزينٌ ورخيمٌ، قال:

السلام عليكم.

أجبنا ثلاثتنا وعليكم السلام ولا أخفي عنك أن سلامه علينا أراحنا قليلاً، ففي نهاية المطاف قد تلفظ بكلمة السلام، أمر أحد رجاله برفع العصائب عن أعيننا، أزعجت الشمس لأول وهلة أعيننا ثم أخذت أحداق أعيننا وضع الرؤية الطبيعي، رجل نحيل وقصير القامة ولحيته حتى منتصف صدره ويضع مسواكاً في فمه ويرتدي ثوباً أبيض طويلاً وشعره كث ووجهه شديد السمرة، نظر إلي ثم إلى خالد فأبي إياد وابتسم ولكن ابتسامته كانت ذات معنى مبطن، نظر إلى أعيننا نحن الثلاثة ثم قال:

ستمكثون معنا فترة أيضاً نريد أن نتأكد من هويتكم أكثر وخصوصاً هذا الولد وأشار بفوهة مسدسه ناحية خالد، الذي غاصت عيناه في وجهه وقد انتبهت لحظتئذ فقط إلى انتفاخ عينه اليسرى ونزف دم من فمه وأنفه وتمزق قميصه وبأنه يبكي، لم أنتبه للوهلة الأولى، كنت منشغلاً بسحنة ذلك الرجل النحيل، بأسنانه الأمامية المكسورة وبنعاله الجلدية، يحملون بنادق ولكن لا يرتدون ملابس ولا أدري إن كان لديهم أموال كانوا غريبين، فعلاً غريبين.

وبعد ذلك؟ سألت كارلا.

عدل توفيق جلسته وطلب فنجان قهوة آخر ليستطيع التركيز أكثر، صمت قليلاً ثم أكمل:

نقلنا من الغرف إلى السجن ولم توضع عصائب على أعيننا.

كان السجن عبارة عن غرفتين، غرفة تحقيق بجانبها غرفة للتوقيف أو الاعتقال. في الليل وبعد حوالى الساعة الثامنة طلب خالد للتحقيق، أول ما سمعته هو:

لماذا تضع صور هذا العلم في هاتفك الخلوي؟

أجاب خالد:

هذا علم الثورة، هكذا بكل براءة يا سيدة كارلا قال (هذا علم الثورة) فما كان من (المحقق) الذي لم يتسنَّ لي معرفة سحنته إلا بعد أن تلصصت من فتحة الباب لأرى جثته العريضة ولحيته الخفيفة على خلاف من تبقى من زملائه ورأسه الذي أكل شعره الصلع؛ رفع المحقق يده وأهوى بها على وجه خالد، ثم ركله بصدره، ثم بدأ يركله ويركله بعدما وقع خالد على الأرض وخالد يقول، أنا مسلم أنا مع الثورة أنا ضد الحكومة، تنهد توفيق قليلاً ورشف رشفة أخرى من فنجان القهوة الثاني الذي جلبه عامل المكتب بعدما طلبت كارلا له فنجاناً آخر:

أتعلمين يا سيدة كارلا؟

ماذا؟

أقسى الأوقات هي أوقات الضياع، تشابك المفاهيم والقيم، أن لا يعرف القاتل لماذا يقتل والمقتول لماذا يقتل، أن تضيع الهوية ويصبح تعذيب الإنسان وقتله أمراً روتينياً وبسيطاً. إن أعقد ما يمكن أن يعيشه الإنسان، هو عدم قبول الآخر وهذا ما جرى في بلدنا، صدقيني، منذ صغرنا اعتدنا إقصاء بعضنا بعضاً، في المنزل والمدرسة والجامعة،

ناهيك بالحياة الاجتماعية، نحن ترعرعنا في مكان اعتاد الجميع إقصاء الجميع، حتى أصبحت حياتنا كلها إقصاء، والأنجح هو ذلك الشخص الذي يقصي أكثر. كان الطاغية يريد صناعتنا على شاكلته ليستطيع أن يحكمنا، كنا كلنا طغاة مثله، ماذا عليَّ أن أبوح برحلتي الطويلة جداً مع العمر يا سيدة كارلا؟ولماذا كان عليَّ أن أتخذ كثيراً من المواقف يوماً؟ لا بسبب الأخطاء التي نرتكبها فلا بد أننا سنتلقى عقابها يوماً ولكن المأساة في المواقف التي عبرنا عنها في لحظة صدق ثم دفعنا ثمنها أكثر من أي جريمة اقترفناها يوماً،لماذا نحن في وطن يعاقب على الصدق أكثر من الكذب؟وعلى الإيمان أكثر من الكفر؟وعلى الوطنية أكثر من الخيانة؟وعلى النزاهة أكثر من الفساد؟لماذا قدر لنا أن نفتح عيوننا في أوطان كلما كنت فاسداً أكثر كنت بمعاييرها ناجحاً أكثر وكلما كنت نزيهاً أكثر كنت أحمق أكثر؟هذه الأوطان التي وضعتنا في زجاجات كرسائل العشاق المجانين ورمتنا في كل بحار الأرض، ولكن قليلون أولئك المحظوظون الذين وجدهم أحد ما وأخذ يلملمهم عن الشطآن ويرميهم في حاويات القمامة بينما بقي الآخرون غارقين وهائمين في بحارالدنيا.

أطرقت رأسها وتنهدت، توقف حازم واستأذن رغبة في دخول الحمام، أذنت له وطلبت من توفيق أن يكمل كلامه.

أكمل السجان ضربه لخالد ثم رفعه وقال له:

أيها الكافر، تحمل علم الكفر وتقول إنك مع الثورة؟ أي ثورة

هذه أيها الأحمق؟ ألم يصل (الجهاد) إلى مسمعك؟ خالد أصبح مثل الحمامة التي بللها الماء، صار يرتجف رعباً، يرتجف بصدق وهو بحجمه الضئيل وجسده النحيل قد أنهكه التعذيب، بكى بشدة وقال له:

لماذا تفعل بي هكذا؟ أنا لم أقتل أحداً ولم أسئ إلى أحد.

كنت أستطيع أن أستمع لأنفاس أبي إياد وكنت أستطيع أن أتفهم مشاعره في تلك اللحظة، لا بد أنه كان يلعن العمل والتهريب والثورة والسلطة والوطن وكل شيء، أنا أعرف كيف يفكر ولكن لست بقادر أن أتكهن طريقة تصرفه، كان لدي فزع حقيقي أن يبدر منه تصرف يهلكنا جميعاً، اقتربت منه وهمست له:

أرجوك إيَّاك أن تهلكنا.

نظر إلي كأنما عقرب ما قد لسعه، ضرب رأسه بالحائط واضعاً يده مكان ضربة الرأس كي لا يخرج صوت ثم قال همساً:

خالد في حمايتي، كيف جرى هذا؟ لماذا يضربونه كل هذا الضرب، لماذا؟ أي دين يدعونه، خالد ملتزم دينياً ويصلي كل أوقاته ويصوم أي كذب هذا؟ أي كذب؟

أمسكت يده وضغطت عليها، اسمعني يا أبا إياد، أنا أتفهم مشاعرك تلك ولكن لا معنى لشيء مما تفعله الآن، فكر فقط كيف ننجو، هم يعذبونه الآن ولكنهم لن يقتلوه، هدئ من روعك.

يا هذا اسمعني جيداً، لماذا لا يضربونك أو يضربوني؟ لماذا هو؟ أعتقد أن مسألة العلم ما هي إلا اختلاق للأعذار لا أكثر، لا بد أن هناك شيئاً ما يخفيه هذا المتوحش.

ما كاد يلفظ هذه الكلمة حتى تقدم السجان دافعاً خالد أمامه، فتح الباب ورماه بيننا نحن الاثنين، أسرعنا نحوه محاولين تطبيبه والعناية بكدماته وجراحه قدر الإمكان أو قدر ما نستطيع، مسح أبو إياد جراح خالد وهو يشتمهم بكل ما في الأرض من شتائم، كنت أستطيع أن أغوص في ملامح وجهه البيضاء الجامدة وأن أغرق في تفاصيل لحيته التي لم يحلقها منذ يومين أو ثلاثة، رفع أبو إياد رأس خالد هامساً في أذنه:

ما المشكلة؟ ماذا يريدون منك؟ ماذا سألوك في الغرفة عندما كنت وحدك؟ قل لي بسرعة؟ هيًا.

طلب خالد الماء، أسرعت أنا لجلب الماء من زاوية الغرفة التي تعتبر الزنزانة وإن كانت مختلفة قليلاً عن الزنزانات الرسمية، شباكها كبير ومفروشة بسجادة عتيقة وفيها العديد من الفرش الذي يغطي الأرض، أخذ أبو إياد مني الإبريق البلاستيك الأزرق، مسح وجه خالد وشفتيه بالماء ثم جرعه جرعتين من الماء، ها يا خالد قل لي، أعاد أبو إياد تكرار السؤال:

خالد ما هي القصة؟

همس خالد بصوت خفيض جداً بعد أن تكفلت أنا بمهمة مراقبة السجان من ثقب الباب، قال خالد:

يستجوبونني على أمور يعرفونها عني، أنا مندهش يا أبا إياد، وسعل سعلتين متتاليتين، ثم أكمل:

أبو إياد هذا الصوت الذي حقق معي في الغرفة الخاصة وعندما كنت معصوب العينين أعرفه، أعرفه تماماً ولكني كنت عاجزاً عن تذكر الاسم أو صورة الوجه ولكني متأكد أنني أعرف هذا الصوت أنا متأكد، وعاد خالد يسعل مرة أخرى:

لقد ضربوني على صدري بقوة أأأأأخ ثم وضع يده على صدره ثم مرر أصابعه على وجهه ليتلمس مكان الجروح، لا بد أني أعرفه قال.

مرَّت الليلة ثقيلة ومفعمة بالهواجس، نمنا من شدة الإرهاق والتعب ولكن نوماً قلقاً محملاً بالخوف من الغد، ماذا يجب أن نفعل، وحده أبو إياد أمضى الليل مفكراً في طريقة لننجو وهو مشغول البال من الأمور التي قالها خالد، لقد أخبروه بالتحقيق أشياء كثيرة عنه بشكل شخصي وأنهم يعرفونه حق المعرفة وعن نشاطه وتوجهاته المعتدلة، في زمن الجنون الكبير الاعتدال تهمة لا تغتفر، في زمن الجنون الكبير عليك أن تكون مع أحد الأطراف، أي محاولة لأن يكون لك رأي مستقل أو مختلف ستنزل عليك اللعنات والويلات من كل حدب وصوب، صعب ذلك الليل الذي قد يكون وراءه صباحاً حبل مشنقة أو رصاصة بالرأس أو سيف يجز العنق.

في الصباح الباكر تم إيقاظنا لأداء صلاة الفجر (جماعة) وفعلاً تم اصطحابنا إلى المصلى لنصلي خلف من كان يهددنا ويعذبنا بالأمس، كانت الصلاة مقتضبة، انتهت الصلاة وتمت إعادتنا إلى (الزنزانة.... الغرفة)، بعد قليل أحضروا لنا قليلاً من الخبز والجبن والزيت والزعتر

وكأس شاي لكل منا، تناولنا الفطور صامتين، هو حكم بالإعدام مبطن هكذا كان شعوري أو بصراحة شعورنا نحن الثلاثة. مضى الوقت الذي استطاع خالد أن يفكر به وهو يحاول استذكار هذا الصوت، صوت من كان يحاول أن يسترجع ذاكرته ويعصرها عصراً، هذا الشاب الجميل الناعم ما الذي فعل بك هذا، كنت أسأل نفسي هذا السؤال، بعد قليل دخل إلى مكان الاحتجاز الشاب الصغير الذي جاءني إلى غرفتي في اليوم السابق مع الرجل الخمسيني أتذكرته؟

نعم.. قالت كارلا

دخل علينا وطلب من السجان مغادرة الزنزانة، يبدو أنه ذو رتبة عندهم، اقترب من خالد، جلس القرفصاء قبالته ودون مقدمات سأله:

من أين يعرفك أبو القعقاع؟

من أبو القعقاع؟ سأل خالد.

أميرنا.

لا أعرف ولكن صوته ليس غريباً عليَّ أبداً إذا ما رأيت وجهه قد يتسنى لي ذلك.

هزَّ الشاب رأسه دلالة تفهمه ثم قال لخالد:

سأحاول أن أريك وجهه ولكن إذا أردت لنفسك الخروج من هنا يجب أن تخبرني أنا فقط أنك عرفته وكيف عرفته أفهمت؟

فهمت... فهمت... قال خالد.

خرج الشاب وبعد حوالى الساعتين عاد وطلب اقتياد خالد،

غاب خالد حوالى النصف ساعة ثم عاد، عاد وجهه أصفر وكأنما مسته الكهرباء، جلس قبالتنا صامتاً، كان واجماً، هزَّه أبو إياد بعنف قل يا هذا فالوقت ثمين.

يبدو أنه قضي عليّ، قال خالد.

كيف؟ سألت أنا.

هذا أبو القعقاع كان معي في السجن الريفي الكبير سجن صيدنايا وأنا كنت قد تشاجرت معه مرّة بسبب سياسته العنفية هناك ومحاولة تغرير الشباب، يا إلهي ماذا حلَّ بي، ثم ضرب على رأسه بكفه.

اشرح أكثر، قال أبو إياد.

أخذني الشاب الذي جاء بعد الفطور إلى غرفته.

إي؟

طول بالك عليّ يا أبو إياد رح اختنق.

لك احكي بدي إفهم.

أخذني هذا الشاب، إلى غرفته وجعلني أستكشف ساحة المكان من النافذة المطلة على الساحة ورأيت أبا القعقاع، ويا ليتني ما رأيته يا إلهي، يا إلهي ضرب خالد على رأسه كأم ثكلى.

يييييي علينا لك احكي، قال أبو إياد.

هذا الشخص كما قلت لكم، كنت مسجوناً معه في السجن الكبير وقد كان يغرر بالشباب الصغار ليجعلهم يتبعون أفكاراً متطرفة ويقومون بأفعال صدامية مع السجانين مما يجعلهم يعاقبون الجميع وقد كنت

أنا أتصدى له، بالحوار والنقاش أحياناً وبالصراخ أحياناً أخرى، حتى أرسل لي من يحاول قتلي في الحمّام ولكن المسألة كشفت وعوقب الشباب بأن أودعوا الزنزانة الانفرادية.

أها؟ وماذا بعد؟ سألت أنا.

لا شيء خرجت أنا من السجن وهو في داخله وكان محكوماً خمسة عشر عاماً ولكنه خرج من السجن في بداية الأحداث قبل أن تنتهي محكوميَّته بخمس سنوات.

طبيعي، يريدون هؤلاء الأشخاص في الخارج، قلت أنا.

اخرس قال أبو إياد واتجه مسرعاً إلى ثقب الباب:

لعله كمين أيها الأحمق، قال لي.

وماذا قلت للشاب؟

لا شيء قلت له بأنني كنت مسجوناً معه وبأنه لابد يعرفني في أثناء فترة السجن وأن علاقتي به سيئة منذ ذلك الوقت، الشاب فهم وشعرت بتعاطفه.

أخخخخخ تعاطفه؟ سيسلخون جلدنا عن عظامنا قال أبو إياد بعد أن أسند رأسه إلى الحائط.

والعمل الآن؟ سألت.

لا شيء لننتظر قدرنا ماذا سيخبئ لنا قال خالد.

هههههه قهقه أبو إياد، يخبئ؟ ما خبأ وخلص، حسبي الله ونعم الوكيل.

أبو إياد، صدقني الوقت ليس في مصلحتنا، لنتدبر الأمر، أملنا الوحيد بعد الله هو ذلك الشاب، هو أملنا الوحيد، قلت ذلك ثم نظرت إلى خالد، هل قال لك اسمه؟

نعم، أبو أيوب هكذا قال لي.

حسناً، ثم اقتربت من أبي إياد وخالد وقلت لهما هامساً:

لنطلب من السجان أن ينادي أبا أيوب ونسأله ونفهم منه ما يجري وبناء عليه نستطيع أن نتأكد أهو معنا أم ضدنا وما هي نيات أبي القعقاع هذا.

حوقل أبو إياد وبسمل متذمراً:

يا أخي، قلت لك قد يكون كميناً ألا تفهم؟

حتى لو كان كميناً، ليس أمامنا خيار آخر، أشعر أنهم سيقتلوننا في أي وقت، صدقني يا أبا إياد، هذا الأمل الوحيد الذي نملكه، لنتكل على الله ونجرب، دعها عليَّ إذا جرى أي شيء قل ليس لي علاقة ولم أكن أعلم، هه؟ اتفقنا؟ قلت لأبي إياد هذا الكلام ليقتنع.

وافق أخيراً طبعاً بعد أن أسمعني محاضرة عن سوء الكلام الأخير الذي قلته وأننا أنا وخالد في أمانته ولن يتخلى عنا حتى لو قتل بسببنا، استدعيت بعدها السجان بطرقة على الباب الحديدي، فتح الباب وسألنا عن الغرض من الطرق، قلت له:

أريد أبا أيوب.

ماذا تريد منه؟

استذكرت بعض الأمور التي سألني عنها وأريد أن أخبره بها.

حسناً، قالها بجلافة وذهب ليناديه.

الترقب أصعب المواقف، الانتظار لعنة الإنسان أتعلمين يا سيدة كارلا، الإنسان يمضي ثلاثة أرباع عمره في الانتظار ثم لا يحصل إلا على الموت أو الشفقة، يمضي عمره في انتظار الشهادة الدراسية ثم الجامعية ثُم انتظار نتيجة التقدم لامتحان الوظيفة، وحدهم المحظوظون أو لنقل أولئك الذين ولدوا وفي فمهم ملاعق من ذهب، هؤلاء فقط من يمكن أن نقول إنهم كانوا على قيد الحياة فترة طويلة أو فترة حقيقية من العمر.

ولكن حتى هؤلاء يكون لديهم آلامهم، أليس كذلك يا سيد توفيق؟

لا أبداً ليس كذلك يا سيدتي، لا يمكن أن يكون آلام الحر كآلام العبد حتى لو كان الحر مصاباً بالسرطان ولا يمكن أن تكون آلام الفقير مثل آلام الغني ولا آلام الحاكم المستبد مثل آلام المحكوم المظلوم، صدقيني لو كانت الآلام عادلة لساد السلام هذا العالم.

هزَّت رأسها دلالة إعجابها وموافقتها توفيق على كلامه.

أكمل حديثه:

المهم، مرَّت الساعة الأولى في الانتظار وكانت ثقيلة ثقل الغربة على نفس الحر، جاءنا ذلك الشاب بعد ساعة تقريباً وكان على شفتيه ابتسامة خفيفة، فتح السجان له الباب دخل وأقفل الباب وراءه.

خير إن شاء الله؟

بصراحة يا أخ أبو أيوب نريد أن نعرف لماذا نحن هنا وما هي التهم الموجهة إلينا وإذا ما كانت هناك عقبات، بصراحة نحن قلقون جداً، قلت ذلك لأبي أيوب.

أمسك لحيته متوسطة الطول بيده وبدأ يداعبها صعوداً ونزولاً، وكانت عيناه العسليتان تتفحصان وجوهنا ووجهه الحنطي الطويل ينبئ بأنه يريد أن يقول شيئاً، عدَّل من جلسته ليضع رجليه تحته بشكل مريح ثم قال:

بصراحة أبو القعقاع يكره خالد جداً ولا أدري ماذا يجهز له، أنا لم أكن أعرف أن أبا القعقاع كان نزيلاً في السجن الريفي الكبير وأنه نال عفواً في بداية الأحداث في البلد، هو يعرف أن هذا يضع إشارات عليه، لو كان أبو القعقاع يخيف المستبد لما أطلقه، بصراحة أنا أصبحت فزعاً كثيراً على مصيرك يا خالد، قال ذلك بينما وجه خالد زاد امتقاعاً وخوفاً ثم أكمل:

سأعمل كل جهدي لتخرجوا من هنا سالمين جميعاً إن شاء الله، هدئوا أنفسكم.

ولكن أين الأخ أبو عياش التونسي ألا يمكنه أن يتدخل فينقذنا، قال ذلك خالد.

ضحك أبو أيوب ضحكة قريبة إلى السخرية ثم قال:

أبو عياش نراه في العام مرة واحدة، يأتي من خارج البلاد ويسلمنا

سلاحاً وأموالاً ويرحل، أبو القعقاع هو المسؤول النهائي والحاكم الآمر هنا، لذلك يجب أن تخرجوا من هنا بسرعة، المساء سآتيكم بالخبر النهائي، السلام عليكم الآن وسنتحدث لاحقاً. خرج أبو أيوب وبعد خروجه بقليل استدعانا السجان وأخرجنا لنتلقى الوقفة اليومية بالبرد، وكان البرد شديداً، حبات من البرد تتساقط وندف من الزمهرير، المكان صار موحشاً، الكثير من شجر الزيتون والمشمش والكثير أيضاً من السيارات المكشوفة الصندوق ذات الدفع الرباعي، رجال وشبان منتشرون بلباسهم الأفغاني ومعظمهم ملثمون؛ توقفنا حوالى النصف ساعة، أنا على اليسار وفي الوسط خالد وأبو أيوب على اليمين، بعد نصف ساعة تقريباً جاءنا أحد الرجال وطلب من خالد أن ينزع ملابسه ويبقى بالملابس الداخلية فقط، جيء به إلى منتصف الساحة وقد نزعت ملابسه عنه، علق بحبل معلّق بخشبة في أعلى شجرة مشمش كبيرة وبقيت أصابع رجليه تلامس الأرض فقط، وبدأ الرجل بعملية رش الماء البارد عليه، يمسك إبريقاً بلاستيكياً يملؤه بالماء ثم يسكب الماء عليه من أعلى حتى أسفل ومنذ أن بدأ بصب الماء شهق خالد شهقة قوية كأم في لحظة طلق ما قبل الولادة، وكانت تخرج شهقته وكأن روحه قد خرجت منه، أبو إياد أصبح وجهه متجهماً ومحمراً من كثرة الغضب وأوداجه منتفخة، وأنا دموعي تتساقط حزناً على خالد. صدقيني لقد كانت دموعي تسقط وحدها من دون أن أشعر، لقد شاهدت كثيراً من الناس يعذبون خلال الحرب سواء عبر الفيديوهات

أو في لحظات اعتقال الأفراد أو خلال اعتقالي، ولكن تعذيب خالد كان مختلفاً ليس بسبب وحشيته فحسب ولكن بسبب عدم تفهمي للسبب الذي يجعله يُعذب بهذا الشكل الوحشي، كان مصلوباً كحيوان وضع في فخ لجلب الحيوانات المتوحشة، كنت أتخيله سنوراً أو أرنباً سلخ ووضع لجلب شهية ذئب أو أسد أو أي حيوان آخر، لقد كان الماء ينساب على جسده وهو يشهق ويقول بصوت شبه هامس، الله، الله، كنت أستطيع أن أقرأ على شفتيه تمتماته وهو يتمتم الله..... الله، كان يرتعش وكان من يعذبه يضع لثاماً ولا تظهر إلا عيناه، أتعلمين يا سيدتي؟ سأل توفيق هذا السؤال ثم عدَّل من جلسته وأشعل سيجارته الأربعين أو الواحدة والأربعين:

أتعلمين؟ كلما شاهدت إنساناً يعذب إنساناً شردت، شردت بيني وبين نفسي وصرت أسأل: لماذا؟ وخصوصاً أولئك الذين يعذبون الناس في المعتقلات أو السجون أو لدى العصابات، لماذا يعذب الإنسان بهذه الوحشية إنساناً آخر لا يعرفه ولا يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد ولم يكن قد شاهده قبل اليوم. كارثة أن يتحول إنسان إلى آلة للتعذيب، كنت أستطيع أن أرى في عينيه لمعة تشف، فرح، زهو، سرور، كنت أراه يحمل الكرباج بعد الانتهاء من سكب الماء ويبدأ بضرب خالد على ظهره وعلى كتفيه ولم يكن من خالد إلا أن يرتفع صوته أكثر ويصرخ أكثر وهو يقول يا الله، يا الله، لابد أن الله كان يسمعه أليس كذلك؟

أستغفر الله، قال حازم.

ربما، قالت كارلا.

أطفأ سيجارته، ثم أكمل حديثه بعد أن وضع يديه على جبينه وبدأ يعصره، صار رأسه يؤلمه:

بعد ذلك فقد خالد الوعي، لم تكن بنيته من القوة التي تجعله يتحمل هذا النوع من التعذيب وكان البرد قارساً، لقد ازرقت يداي ويدا أبي إياد من البرد فكيف بخالد المسكين. بعد ذلك أنزل فحملته أنا وأبو إياد إلى الزنزانة، وأدخلناه بسرعة، جففنا جسده وأبدلنا ملابسه الداخلية، وبدأنا بعملية تدليك لجسده كاملاً لكي يعود الدم يجري في عروقه. لقد كان متجمداً من البرد، كاد أبو إياد ينفجر، لم يكن يعرف ما عليه أن يفعل وأنا لم أعد أعرف ماذا أفعل، من الواضح أن المستهدف هو خالد أما أنا وأبو إياد فكنا تحصيل حاصل، لم نفكر للحظة واحدة أن ننجو بنفسينا ونترك خالد، كنا نريد أن نأخذه معنا وأن نخرج معاً من هناك أو أن نموت معاً، رغم عدم معرفتنا السابقة به وعدم اشتراكنا معه في قضيته نفسها إذا صح التعبير، ولكن خالد أصبح يمثل لنا ضميراً ما، كنا لا نستطيع أن نراه أو نلمسه قبل ذلك اليوم، كانت رائحة البارود وغبار المعارك قد أسكتا كل صوت وأعميا كل عين ولم يعد بإمكانك أن تشاهد أي ضمير بين جلبة الموت والقتل تلك، كان خالد بجسده النحيل وآلامه وبخوفه وفزعه وجسده البارد المتجمد، كان ذلك الغائب وأصبحنا نراه أنا وأبو إياد أمام أعيننا، كان خالد مناضلاً بحق،

ناضل في السجن الريفي ضد التعصب وناضل خارج السجن ضد الاستبداد مما جعله يدخل السجن حباً وكرامة والآن يدفع هذا الشاب أثمان كل مواقفه دفعة واحدة. فلو كان خالد مثل غيره لانحاز إلى آلة من آلات الموت وحصل على (الحماية)، من الكارثة أن تكون في بقعة من العالم إذا أردت أن تنجو من الموت عليك أن تكون قاتلاً أو على أقل تقدير محمياً من قتلة، تركنا ثلاثة أيام، مع وجبات الطعام المعتادة من دون أي سؤال ولم يخرج خالد للتعذيب مرة أخرى كانوا يتركونه حتى يتعافى، هكذا كنت أظن، في اليوم الرابع دخل علينا الشاب الذي حدثتك عنه، أبو أيوب تذكرته؟

نعم.

دخل السجان وطلب منا الاستعداد للمحاكمة، فاليوم سنلتقي (الشيخ الكبير) الذي سيصدر قراراً نهائياً بقضيتنا، تبادلنا النظرات، ثم قلت لأبي إياد:

قضيتنا؟

بصق أبو إياد باتجاه الحائط.

ثم أكملت:

كيف يكون لدينا قضية من دون تحقيق ولا تهمة ولا شهود ولا نيابة ولا شيء إلا أن يدخل علينا أشخاص غريبو الأشكال والأطوار ويقولون (قضيتنا)، هذا البلد الذي ننتقل فيه من جنرال يفصل المحكمة على مقاس بسطاره العسكري إلى قاتل يفصلها على مقاس

لحيته،أسندت رأسي وظهري إلى الحائط وقلت، يا إلهي، يا إلهي أنقذنا.

فعلاً، يبدو أننا نحتاج إلى قوة إله لنخرج من هنا، قال أبو إياد ثم أسند ظهره إلى الحائط وأضاف: اللعنة، حقاً اللعنة، كم أحتاج إلى سيجارة، لقد منعونا من التدخين لأنه حرام، هه، يا للسخرية التدخين حرام والقتل والتعذيب حلال اللعنة عليهم.

مضت الساعات ثقيلة علينا ونحن ننتظر نقلنا إلى (شيخهم) كلما مرَّ هر من جانب النافذة أو عصفور حطَّ ليأخذ قشة عالقة على السطح كنا نفزع ونقول اقترب الإعدام لا بد أنه الإعدام، بصدق كنا نهمس أنا وأبو إياد أن الإعدام سيكون لخالد على أقل تقدير وقد يشملنا الحكم لمحو الشهود هكذا كنا نفكر، وأثناء تفكيرنا ونحن نحاول أن نضع آذاننا على الجدران وعلى سياج النافذة لنسترق السمع لأي شيء كان فتح الباب ودخل علينا السجان:

هيّا الشيخ ينتظركم.

قيَّدنا (بكلبشات) بلاستيكية وتم اقتيادنا إلى مكان الشيخ، ما إن وصلنا إلى باب الزنزانة حتى وضعت العصبة مرة أخرى على أعيننا، هذه المرة لم يضعها السجان بشكل جيد على عيني.

اقتادونا، كنت أستطيع أن ألمح بطرف عيني الشاحنات التي تعلوها المدافع الرشاشة التي تستخدم في ضرب الطائرات وكنت أستطيع أن ألمح أيضاً رجالاً ملتحين في كل مكان ولباسهم الأفغاني الذي يرتدونه جميعهم تقريباً. كنا في بستان كبير وكان المقر الذي

تتخذه القيادة هو فيلا في وسط هذا البستان، ويبدو أن زنزانتنا كانت مسكن الحارس القديم أو غرفاً جانبية في هذا البستان، أصبحت عادة دارجة أن تؤخذ فلل الناس وتستخدم مقرات عسكرية أو مدارس ثكنات أو مستشفيات دوراً للتعذيب أو مركز ثقافي معتقلاً موقتاً؛ في الحروب كل شيء يجير لمصلحة التخريب، مشينا كخرفان إلى مسلخ، مشينا بهدوء ودون جلبة وكان خالد لايزال يعاني تقرحات في جسده وخصوصاً ظهره من آثار التعذيب، وصلنا إلى الفيلا المقر، طُلب منا التوقف قليلاً، دخل السجان بضع دقائق ثم عاد واقتادنا، غريب ذلك الاستسلام للقدر، غريب ذلك الشعور بأن موتك محتم الآن بعد لحظات لكنك لا تفعل شيئاً بل تستسلم، وتتذكر الأشياء التي تحبها، شفاه حبيبتك مثلاً، الوجبة الألذ والمفضلة لديك، التمدد الأخير لك على شاطئ، كنت فعلاً أنظر إلى تلك الوجوه وأنسى الموت، أنظر وأنسى الموت، ولكني للأمانة تذكرت أمي. كنت أرجو شيئاً واحداً في تلك اللحظة أن يجيب الله كل دعواتها لي دفعة واحدة. أدخلنا السجان وسلمنا إلى رجل آخر، كانت الفيلا كبيرة الحجم وطابقها الأرضي مكوناً من صالون كبير وبعض الغرف الجانبية، كان الصالون شبه صالة انتظار، انتظرنا دقيقة واحدة ونحن وقوف وتم إدخالنا إلى الغرفة الخامسة تقريباً إذا ما بدأنا العد من يمين الباب الرئيسي، نزعت العصبة لنشاهد آخر شيء كنا نود رؤيته، كان الشيخ هو (أبو القعقاع)، قال أبو إياد:

قضي علينا أما خالد فابتسم وقال:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنا صمتّ وحسب.

كان أبو القعقاع متكئاً على كنبة كبيرة وكان حوله بضعة رجال خمسة أو ستة، وكان بينهم الشاب ذاك أبو أيوب، حركة صغيرة من عينيك في وجوه القوم تستطيعين أن تتأكدي أن هناك موتاً يحوم فوق رأسك، أبو قعقاع، الأمير والشيخ والأب الكبير وكل ما يمكن أن يخطر على بالك من صفات، ألم أخبرك أن الطغاة لا يصنعون إلا أناساً مثلهم؟ فجأة ودون مقدمات وبعد ابتسامة ساخرة من أبي القعقاع عدل الأخير من جلسته، نظر إلى وجوهنا وتأملها ملياً ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد التهم الموجهة إلى كل من:

تلا أسماءنا الثلاثة

توفيق صادق الصباغ

أحمد سليم الآغا

خالد سهيل الحناوي

وبناء على نتائج التحقيق وبعد كل ما سمع من كلام المتهمين الثلاثة قرر ما يلي:

براءة كل من توفيق وأحمد من جرم العمالة مع القوات الحكومية وإدانة خالد الحناوي بالجرم المنسوب إليه وإحالته إلى تطبيق الحد الشرعي بحقه، ثم أكمل الكثير من الآيات والأحاديث التي ما عدت

أفهمها البتة وأساساً لم أعد أسمعها، صدقيني كان بودي أن أضحك، نعم أن أضحك، أية اعترافات وأية أقوال وأي تحقيق، أصبحت المسألة جلية وكان خالد ساكناً كقط بلله المطر لم يتلفظ بحرف واحد، أصابه ارتخاء بل استسلام كامل، للحكم الصادر، وأنا وأبو إياد لم نطلب الكلام، كنا نعرف أن أي اعتراض سيكلفنا حياتنا، أعدنا إلى الزنزانة، وكأن الطير فوق رؤوسنا، أشرقت الشمس علينا بعد انقشاع الغيوم، منذ مدة طويلة لم نشاهد الشمس، الطقس غائم دائماً في الشتاء في هذا المكان من البلاد، جلس خالد وبكى، بكى، لم نعد نستطيع أن نقول له شيئاً، بكى فقط ثم جفف دموعه وقال:

يجب أن ألاقي الموت صامداً، يجب أن لا أتوسل إلى هذا المجرم، سأنتصر عليه بموتي، سيصبح دمي لعنة عليه وعلى أمثاله، ثم أعطانا عناوين عائلته وأسماءهم وتلا وصيته التي كانت رسالة قصيرة لوالدته:

(أمي، لا تخافي، يقولون إن الشهداء في الجنة، وما زلت أؤمن أن الشهادة تكون عندما يقف الضعيف في وجه القوي من أجل حقه وعندما يموت الإنسان لأنه جاهر بالحق له ولغيره، لا تخافي عليَّ، لا بد أن نلتقي يوماً ما، في زمان ما، عند الخالق، أنت تعرفين أنه رغم كل ما يشاع عني إلا أنني أؤمن بالخالق عز وجل، ادعي لي دائماً يا أمي).

ولدك الوحيد خالد .

لم نتمالك دموعنا قط ولم نستطع أن نتمالكها، احتضناه وصرنا نبكي، من شدة بكائنا غفونا، ومع كل اهتزاز أو صوت قادم من ناحية الباب كنا نستيقظ لأجله أو نقف رهبة، كنا نشعر أن جرنا إلى الإعدام اقترب، في منتصف الليل وفي أثناء احتضان بعضنا بعضاً في محاولة وداعية أخيرة، دخل علينا ذلك الشاب أبو أيوب، نظرنا إلى وجهه قال صههههه وطلب منا أن نتبعه، خرجنا وراءه لنرى السجان مقيداً وكأنه مغمى عليه، سرنا وراءه في عتمة الليل حتى صرنا بين الشجر وما إن وصلنا إلى منطقة محددة بعد السير قرابة عشر دقائق حتى طلب منا الركض، ركضنا، ركضنا ونحن نركض، كانت أنفاسنا تسبقنا وتسرع أمامنا وخلفنا كانت أرجلنا تسبقنا ونحن نركض ونركض وصلنا إلى سور من الإسمنت والبلوك، قفز أبو إياد بسرعة وتبعته أنا فيما بدأ خالد بالتسلق وإذ كاشف للضوء كبير جداً يتجه نحونا، كان الضوء قوياً أعمى أعيننا في حين أن مجموعة من السيارات أحاطت بكل مكان، كان خالد وأبو أيوب قد قفزا وأصبحنا محاصرين، وبدأ إطلاق النار في الهواء بينما صوت قادم من مكبرات صوت يطلب منا الاستسلام، خارت قوانا وأدركنا أن الحكم الذي أنقذنا أنا وأبا إياد سابقاً لابد أنه سينقض الآن، ترجل أبو القعقاع من السيارة واتجه نحونا، لم يتلفظ بأي كلمة بل أمر أبا أيوب وخالد بأن يجثوا على ركبهما ثم رفع مسدسه ووضع الفوهة في رأس خالد من الخلف ثم قال:

أتحسب أنك كنت ستنجو ودوى صوت الطلقة وسقط خالد،

سقط صريعاً كحمل ذبيح وكنا نبكي نعم أنا وأبو إياد كنا نبكي ثم نظر أبو القعقاع إلى وجه أبي أيوب واقترب منه ووضع المسدس في جبينه ثم قال:

كم اعتبرتك ابناً لي.

ضحك أبو أيوب وقال:

أبي لم يكن خائناً وقاتلاً.

ودوَّت الطلقة الثانية وسقط أبو أيوب.

أنزل أبو القعقاع مسدسه ومشى باتجاه السيارة، لم ينظر حتى إلينا، مشى بسرعة ركب سيارته ومضى وتبعته مجموعات السيارات الأخرى، نظرنا أنا وأبو إياد كل إلى الآخر كان شعوراً غريباً، ما هذا الذي جرى حتى ننجو مرتين من الموت هكذا، لا بد أن الله تركنا لنتعذب بالذكريات وآلامها.

كانت الدموع تنهمر من عيني حازم وعيني كارلا، أوقفت كارلا آلة التسجيل ومسحت وجهها بمنديل بعد أن ناولت حازم منديلاً آخر وتوفيق طبعاً، توفيق الذي لا يمكن أن يتوقف بكاؤه عندما يتذكر خالد.

ألا ترى يا توفيق، لقد أطلقتم الصرخات الأولى تريدون الحرية، فجاءت كل شياطين الأرض إلى بلدكم فخربتم ذلك البلد الجميل بأيديكم، قالت كارلا.

لم نرتكب خطأ بحق من نحب (وطننا) أو بلدنا كما قلت، ليس ذنبنا أننا طفل حرم من اللعب في الطريق مثل كل الأطفال ومن الذهاب

إلى المدرسة مثل كل أطفال العالم،ليس ذنبنا أننا أقفلت علينا الأبواب خمسين عاماً بمتاريس الاستبداد والجهل والأفرع الأمنية والموافقات الحكومية،ليس ذنبنا أننا طفل كبر وشاب ولم يعرف أن هناك شيئاً اسمه (عيد) يمكنه أن يذهب إليه ويلعب بالأراجيح،لم يكن هذا ذنبنا قط، لم يكن ذنبنا أننا لم نستطع أن نتهجأ كلمة وطن هكذا.... و.... ط.... ن كما يلثغ الأطفال كلمة بابا وماما، ليس ذنبنا أننا لم نحفظ طوال خمسين عاماً إلا أسماء الرئيس وأسماء أبناء الرئيس واسم زوجة الرئيس واسم ابن خالة الرئيس وأسماء أولاد عم الرئيس... لم يكن ذنبنا يا سيدتي لم يكن ذنبنا قط والآن جئت تقولين لي لماذا خربتم بلدكم؟هل تعتقدين أن هذا الطفل الذي حدثتك عنه سيلعب بلعبه إذا ما أحضروها له؟ لا ياسيدتي سيكسرها، نعم سيكسرها، سيكسرها فوق رأس أبيه الذي لم يكسر قفلاً لمنزل ويصرخ بوجه السجان، سيكسرها فوق رأس أمه التي لم تترك الطهو وعلمته كيف يلثغ كلمة وطن هكذا، و.... ط.... ن. نعم إنه سيكسرها فوق رأس معلمه الذي تفرغ أياماً وأياماً ليحفظه أسماء الرئيس وعائلة الرئيس والألقاب التي أعطيت للرئيس ولم تعطَ حتى لنبيٍّ بعده سيكسرها ثم... أتعرفين ثم ماذا؟ ثم يبكي لأنه كان يحلم أن يكون له يوماً...... لعبه....

الفصل الخامس

تحتار بنا الحياة، فيتلقَّانا البحر موجة زائدة عن صراخه، زبداً فائضاً عن تململه اليومي بكثرة العشاق الذين يذرفون الدموع أمام اتساعه، خشباً مكسوراً تائهاً في لججه وأغواره، البحر عندما يصبح وجهة شعب يحتضنه كأم غافية تقتل أبناءها خطأً.

منذ تلك اللحظة التي فضّت فيها المظاريف الثلاثة وجمانة ممتنعة فعلاً عن النطق أو الكلام، منذ ذلك اليوم تعاهدت بينها وبين نفسها أن تتوقف عن البكاء وأن تبحث عن أسلوب آخر لتصنع حياة مختلفة، لقد مهّدت لها وصية وسيم الطريق الذي عليها أن تسلكه أخيراً، لقد كانت وصيته حبل النجاة الأخيرة من عقدة الذنب من قِبل من أحبّت وارتبطت معه بوشائج الزواج المقدس، لقد كانت هذه الوصية بكل ما فيها انعتاقاً لجمانة من أوتاد غرستها في أرض بلادها فجعلتها تبدو أكثر تحرراً من ذي قبل، استشهد وسيم أخيراً وأنهى بنفسه رحلته الطويلة مع الحيرة، كان يقينه بقضيته حازماً ولكن إيمانه بجدوى ما يقوم به بقي هاجساً محيراً له حتى آخر كلمة كتبها لجمانة أو قالها لعمران، الآن لم يعد للذكريات أية قيمة، أو بشكل أكثر دقة لم يعد لها جدوى، فما يعني أن تمضي وقتك وأنت تسترجع اللحظات الجميلة التي قضيتها يوماً مع شخص ما؟ ما يعني أن تمكث ليالي طويلة تحتسي من كأس الشوق وتشرب حسرة الغياب كمن يحتسي السم؟ السم أقله يقتلك في النهاية، يعني يريحك بشكل أو بآخر ولكن الذكريات تحرق جوفك

كماء النار، تتغرغر فيها روحك كالملح، تكويك حتى آخر لحظة شقاء، تنتهكك حتى النخاع، ما الجدوى من البكاء على أطلال من مات؟ الوفاء؟ الوفاء في ذاته اختراع لأحد النرجسيين الذين لا يحتملون أن يتحرر أحد ما من فوضاهم أو من ذكراهم أو من وجودهم، في النهاية كل الذكريات تؤدي إلى الغرق.

منذ أن فضَّت تلك المظاريف وكأنها فضَّت بكارة الزمن، لم تكن كلمات الرسائل عبارة عن شجون زوج مقاتل لزوجته فحسب بل كانت سطور اعتراف، لا نحتاج عادة إلى كرسي اعتراف أمام كاهن ولا لحظات صوفية لنعرض توبتنا على الله، الورق أكبر مساحة من الأرض عندما نريد أن ندون صمتنا، بين سطور الرسالة التي أرسلها وسيم إلى جمانة، وطن يتبخر وحلم يتبعثر مثل الطحين في يوم عاصف، عادة ما تحمل الرسائل الأشواق أو عذاب المحبين أو عتاب الفراق أما أن تحمل وطناً لتخط غرقه واختناقه بتسع وريقات فهذا عبء ثقيل، ثقيل، ثقيل.

منذ أن وصلت جمانة إلى جزيرة مارمريس التركية وهي منتظرة في شقة صغيرة تقع قبالة البحر تماماً، هي تحب البحر وتحب القهوة أيضاً أن تشربها قبالته، علاقتها بالبحر علاقة شغف، كم حاولت أن تخبره الكثير من الكلمات التي لم تستطع أن تقولها لأحد يوماً، لماذا يقولون سرك ببير؟ لماذا لا يقولون سرك في البحر؟ أليس هو أوسع مدى؟ وأكبر حجماً؟ وأكثر خوفاً؟ وأعظم جذباً؟ كانت ترى البحر وتتأمله

وتحاول كثيراً أن لا تتذكر. لقد أدخلت فيروساً إلى دماغها واستأصلت غدة التذكر إلى الأبد وإلى الأبد ستبقى تؤسس لذاكرة جديدة.

لم يستطع غبار المخيم ولا حرارته الشديدة صيفاً ولا برودته القاتلة شتاء ولا جحيم الانتظار ولا شهوة الحلم بغد أفضل ولا لليالي الجحيمية الطويلة التي تمر على امرأة وهي نائمة فاتحة عيناً ومغمضة أخرى خشية أن ينقض عليها ذئب بشري في أي لحظة لينهشها، رغبتها في صون رباطها المقدس كانت مفعمة بالصوفية، هكذا هن النساء عندما يخلصن يملأن الأرض وفاء وعندما يقررن الخيانة لا يقف في وجههن شيء، الخيانة؟ كلمة صعبة أليس كذلك؟ هذا السؤال الذي وجهته إلى محاورها الذي يقاسمها النافذة ويطلان معاً على منظر البحر البديع يرافقه شروق الشمس الرائع.

لا أدري، لربما، ولكن للخائن دائماً وجهة نظر، هذا طبعاً إذا وافق على اعتباره خائناً رد محاورها.

كيف؟ أليست هذه الأمور بينة؟

رشف من فنجان النسكافيه الصباحي رشفة، مص شفته السفلى بالعليا ليستمتع بمذاقها المر ثم قال:

لا ليست بينة حقيقة، فمثلاً الذي يتعامل مع العدو ضد بلاده ويساق إلى حبل المشنقة بتهمة الخيانة لو قدر له أن يصرخ على حبل المشنقة ويقول كلمة أخيرة برأيك ماذا سيقول؟

دون أن تدير وجهها نحوه قالت:

لا بد أن سيبكي ندماً، هكذا أقله نشاهد في الأفلام.

يبتسم ابتسامة صغيرة ثم يضيف:

لا يا سيدتي، أنا حقيقة أخالفك في الأمر تماماً، أعتقد أنه سيلعنهم، سيلعن الجلاد والقاضي والمجتمع وحتى لنقل البلد الذي هو متهم بخيانته، وبعد أن يشبع الجميع لعناً سيسأل سؤالاً جوهرياً، من منكم ليس بخائن؟ ثم يجيل نظره في الحضور ويقول للقاضي:

هي أنت متى حصلت على رشوة آخر مرة؟ وأنت أيها الضابط متى حصلت من مجندك على أموال لقاء إعطائه إجازة آخر مرة، ثم ينظر إلى الحضور الذين جاؤوا إلى قاعة المحكمة ليشاهدوا الجلسة ثم يرمقهم بنظرة عتب واستحقار ويقول لهم:

أنتم، هيييي أنتم، أيها الموتورون الذين جئتم لمشاهدتي، يا من أتيتم لتلتفوا حولي كمجموعة من المجانين رموا قطة في النار وبدأوا يرقصون فرحاً بموائها الأليم، أنتم يا من جئتم لتبصقوا وتكيلوا الشتائم وتطلقوا النعوت أنتم أجيبوني الآن:

من منكم لم يصفق للديكتاتور؟ ومن منكم لم يسكت عن الأخطاء العظمى ومن منكم لم يشارك في الجريمة، كلكم فاسدون كلكم مثلي خونة.

هزَّت رأسها قليلاً، استدارت لتصبح قبالته تماماً:

أتعرف؟

ماذا؟

انظر نحو البحر قليلاً وتأمل، سترى هناك شتاتك، أنت بمنطقك هذا مشتت، تسليم الوطن والجسد والروح خيانات ليس لها ما يبررها، أنا مقتنعة بأنه علي أن لا أخون نفسي على أقل تقدير، سأحافظ على ما تبقى لي من نفسي وروحي أفهمت؟

ناولها سيجارة لتدخن، تناولتها من يده، حرَّكتها بيدها وهي كمن يتفحصها:

لم أدخن قبل الآن ولكن سأجرب، قررت أن أجرب كل شيء لا أريد أن أرث المفاهيم وراثة بعد الآن، وضعت السيجارة في فمها وقربتها من يد محاورها فأشعلها من قداحته، غبَّت منها قليلاً لم تسعل أخرجت الدخان بسرعة:

مممم ليست لذيذة ولكنها ستبدو كذلك.

كل الذنوب هكذا أولها يؤنب الضمير وآخرها اعتياد يجلب المتعة.

استندت بظهرها إلى الحائط وأعادت نفث دخان سيجارتها:

صدقت يجلب المتعة. قالت.

ويجلب الكوارث أيضاً قال.

كمتعة النضال؟ متعة المقاومة؟ متعة القضية الكبرى والبحث عن (الغد الأفضل) كزَّت على أسنانها وانفعلت قليلاً وهي تقول هذه الكلمات، ككل المتع التي ركضنا وراءها، لا أدري ممن سمعت يوماً أن العذاب النضالي لذيد، أعتقد أننا شعوب مازوشية بالفطرة، ألا تتفق

معي بأن أمة موروثها الشعبي مليء بهذا الكم من الشعر والغناء والقصة والرواية والمواويل الحزينة هي أمة ملعونة؟ ألا تتفق معي أن شعباً إذا أراد الضحك قال: (يا رب عطينا خير هاضحكات) شعب حكم عليه باليأس؟.

ابتسم، وضع يديه في جيبيه ثم نظر ناحية البحر وقال:

أتعلمين؟ لا أدري من الذي قال يوماً (حب الوطن سوسة) وأيضاً حب الثورة (سوسة) عشق التغيير، هوس التقدم نحو الأمام، ضرب بكفيه على جانبي جبينه، الفكر يا جمانة الفكر ورطة صدقيني ورطة، والألم صنو الفكرة يتزاوجان فينجبان قدراً كاملاً على شكل أجيال.

الثورة؟ ما بك؟ عمّ تتحدث؟ الوطن؟ كيف يمكننا أن نبني الوطن ونحن محطمون، وكيف يمكننا القيام بثورة ونحن عاجزون عن الكلام منذ عقود، عن الكتابة منذ عقود، وعن الحب منذ عقود، كيف لأمة يتلذذ ذكورها بقتل الحب وإناثها بإجهاض الجسد أن تتقدم وتصنع مستقبلاً؟ إن أردنا الوطن الأفضل فيجب أن نكون ذلك الإنسان الذي يستحق، قالت ذلك وأشاحت بوجهها بعيداً نحو الجبال العالية التي يكسوها شجر الصنوبر.

أصلح من معطفه الشتوي الأسود وأشعل سيجارته التالية أقله بعد العشرين:

أتعلمين؟

ماذا؟ أجابته وأبقت وجهها نحو البعيد، نحو الأفق، تحاول أن

تصنع لنفسها أفقاً بعدما تآمر على حياتها كل شياطين الأرض فأهدوا إليها زوجاً ميتاً بلا قبر وعائلة مشردة بلا بيت وطفلة يتذوقها الموت بقدر ما تلفظها الحياة.

ما زلت أفكر في قصتك منذ أن تلوتها عليّ البارحة.

تضحك ضحكة صفراء:

وهل قصة حزينة كقصتي أصبحت استثناء في زمن الحزن هذا، أنت نفسك لديك قصة قد تكون أكثر حزناً؟

بل قولي في زمن الكذب هذا.

لكل زمن مؤونته من الكذب ولكن زماننا طفح بالحزن كثيراً.

قلت لك، نحن أمة مجبولة من حزن.

قل بل نحن أمة مجبولة من الخيبة، قرأت يوماً في كتاب يتحدث عن مذكرات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس، أعتقد أن الكتاب لأنطونيو غالا، كان الراوي ينقل شهادة الملك الأخير لغرناطة وهو يبصق على نفسه، كان يروي كيف سقطت مالقا بيد الإسبان وكيف قاوم قائد الحامية أحمد الزيري حتى أكلوا الحصى وكيف أرسل الملك الصغير من يتآمر على المدينة لتسقط ثم كتب للتاريخ مذكراته ووصف نفسه بالوصف الذي يليق به، جبان، لا يحافظ الجبناء على بلادهم تذكر ذلك.

وكم في أبي عبد الله في تاريخنا؟

هههههه تضحك بل قل كم أحمد زيري في تاريخنا؟ هذا هو السؤال.

يبادلها الضحكة الساخرة ويقول:

صدقت في ذلك.

يمشيان إلى الأمام قليلاً بمحاذاة مياه الموج، والبحر يرمي بمياهه بين أقدامهما والشمس تحاول أن تتحايل على الغيوم ليصل ضوؤها إلى الأرض والهواء يحرك شعر جمانة الكستنائي ويجعل محاورها أكثر انكماشاً على نفسه.

قولي لي: ماذا كان في الظرفين الباقيين؟

آآآه، تلك مفاجأة أخرى، فبعدما انتهيت من قراءة الرسالة وبعدما بكيت وأجهشت بالبكاء، أنت تعرف الأشواق يا سيدي، أخرج الصحفي عمران المظروف الثاني من جيبه وفتحته على وجه السرعة، كان فيه ذكرى لقائنا الأول، قلادة من الفضة أهديتها إلى وسيم عندما التقينا في إحدى أسواق دمشق القديمة وكانت على شكل نجمة خماسية وفي داخلها اسمي، كانت عهداً، هذه القلادة عندما رأيتها وعندما علمت من عمران أنه أعطاه إياها قبل يوم من موته أيقنت حينئذ أن موته كان قراراً عن سبق إصرار وترصد فكرهته.

كرهته؟

بل كرهت المبادئ التي تجعلك تقتل نفسك ليسرقك الآخرون.

وماذا بعد؟

فتحت المظروف الثالث على عجل، كان يحوي مبلغاً من المال وورقة صغيرة تحمل رقم هاتف لشخص يعيش في اسطنبول وطلب مني أن أتصل به لأخرج أنا ورزان هرباً إلى أوروبا.

أها!!!! كان خروجكما جزءاً من وصيته؟

بل جزءاً من نكبته وخيبته وخذلان الناس له، أتحسب أن رجلاً يقرر الموت من أجل وطنه يقبل أن تكبر ابنته وزوجته خارج هذا الوطن الذي مات من أجله؟ وسيم لم يمت لاقتناعه بالنصر بل لوفائه الذي عادة يصبح مرضاً.

وهل يمكن أن يكون الوفاء مرضاً؟

نعم.

كيف؟

عندما تكون وفياً لمن يخونك وطيباً مع من يطعنك وبسيطاً مع من يقرر دائماً أن يسلب منك حياتك.

ولكن الوطن لم يفعل ذلك.

الوطن بناسو يا باشا صدقني ورمت حصاة صغيرة إلى البحر سرعان ما تلاشت في موجه الفسيح البديع الكبير، حيث سر الله اللامتناهي.

ثم ماذا؟

لا شيء حزمت حقائبي ساعتئذ وخرجت إلى تركيا فوراً من دون أن أخبر أحداً ثم اتصلت بالرجل صاحب الرقم الذي كان في المظروف الثالث وبعد مدة أصبحت هنا أستعد للعبور نحو الجنة الموعودة، أوروبا.

وهل تعتقدين أنها جنة؟

أقله ليست جحيماً، تأكد من ذلك.

أين تعلمتِ كل هذا؟

مممممممم، في مدرسة الوجع.

وهل للوجع مدرسة؟

نعم، جدرانها الكذب وصفوفها النفاق ومدرسوها الخونة أما تلاميذها فهم حضرتنا ثم ضحكت بصوت مجلل ردد البحر صداه، كانت أنثى كاملة ذلك اليوم.

وكان توفيق شارداً بعينيها.

وكان بينهما وطن يتأرجح فوق مشنقة الأمل والألم وحياة ينشدانها هناك خلف تلك التلال، تلال الهجرة الجامدة الباردة.

سنتجاوز هذا البحر قريباً يا سيدتي وسيكسوك البرد حقباً ودهوراً.

تلملم شعرها إلى الخلف وتعيد ربطه ببكلتها العاجية تبتسم ساخرة:

لا فرق كبيراً بين مدن الملح ومدن الثلج كلتاهما تخرجانك من جلدك وتلبسانك غطاء الغربة الموجعة، وكلتاهما تصهرانك في بوتقة الضياع، ولكن إحداهما تستخدم شدة القهر ظلماً والثانية شدة القهر بعداً، صدقيني يا سيدتي الحياة قفص كبير.

نعم قفص كبير أوافقك في الرأي.

وماذا ستفعلين في أيامك القادمة؟

بل قل ماذا تنتظرين في أيامك القادمة، أنتظر هذا الموج أتراه؟

سيقلني إلى الموت أو إلى الموت، فعندما تخلف وراءك وطناً كسيراً فإنه لا يمكنك استعاضته بأوطان الدنيا، الآن يا سيدي تأكدت أن هناك شيئاً اسمه وطن يستحق أن نعيش لأجله.

نعيش أو نموت؟

نعيش يا سيدي نعيش، الأوطان ماذا تريد من الموتى؟

نموت ليحيا غيرنا، نعم يحيا غيرنا ويموت الوطن، المستعدون للموت يجب أن يبقوا على قيد الحياة كي يبقى الوطن حيًّا، بالله عليك ماذا فعل الذين ماتوا إلا أنهم تركوا الوطن للجبناء والوصوليين والسراق والكذبة واللصوص والحقراء، هذه الأوطان أجهضناها باكراًبقتل خيرة نسائها ورجالها وصباياها وشبابها ألا ترى ذلك؟

أرى ذلك طبعاً إني أرى ذلك، لقد سقط أجمل أصدقائي تحت التعذيب وفي المعارك وفي الصفوف الأولى من التظاهرات ولم ينجُ إلا الفاسدون أو سعداء الحظ ضعاف الحيلة.

ألم يحن وقت الغداء؟

بلى تفضلي.

هيًّا.

لا، أصبحنا الآن على أعتاب أوروبا، النساء أولاً وضحك.

ضحكت هي الأخرى وهاج البحر أكثر.

يتناولون الغداء عادة في بهو بنسيون صغير يشبه الشاليه مطل على البحر، محجوز دائماً ليكون مكاناً لتجمع العائلات والشباب والنساء

الراغبين في العبور إلى القارة الأخرى، يبقون فترات متفاوتة ومختلفة من الوقت حتى يصبح هناك إمكانية لخروجهم في رحلة، حقائبهم محزومة دائماً ونفوسهم جاهزة لاجتياز الموج ودعواتهم دائمة لا تنقطع ووصيتهم مكتوبة ومحفوظة لدى أحد أقربائهم لتنفيذها، فاحتمال النجاة ضعيف جداً وخصوصاً في موسم الشتاء فمن لا تلتهمه الأسماك يلتهمه الغرق ومن لا يلتهمه الغرق يلتهمه الرصاص لخفر السواحل لإحدى الدول المحيطة بالبحر المتوسط.

دلفا إلى بهو البنسيون وألقيا التحية على الموجودين، رفع صوته حازم من آخر طاولة ناحية النافذة البحرية للبنسيون:

هي أنتما سأموت جوعاً وأنا أنتظركما.

لا تخف لن تموت لديك مخزون كاف، قال ذلك توفيق متهكماً ومبتسماً ابتسامة ساخرة.

تبتسم جمانة:

كف عن حازم يا توفيق.

قولي له أن يتوقف أنا أصبحت أشعر بالقرف كلما نطق بشيء.

إي طول بالك يا رجل، أعطنا الخبز.

هل يمكن أن أشارككم في الطاولة؟

نظر الثلاثة نحو الرجل الخمسيني أسمر اللون متوسط القامة أصلع الرأس وفيه زيادة بسيطة للوزن يعتمر قبعة (شابو) رمادية اللون.

أهلاً وسهلاً بك، بتشرف يا عم، وقرَّب حازم الكرسي له:

تفضل.

ابتسم له ابتسامة ودية وجلس على الكرسي بعد أن وضع صحنه وملعقته وسكينه:

أنا أبو مراد.

سوري؟ سألته جمانة.

عربي فلسطيني من سكان سورية مخيم اليرموك ووضع أول ملعقة طعام في فمه.

أتحب طعامهم؟ سأله توفيق.

أقله ألذ من طعم الجوع.

هزَّ الثلاثة رؤوسهم دلالة الموافقة.

كان الطعام مقبولاً هنا، ولكن في الأيام الأخيرة أصبح قليلاً ومقرفاً، ربما لكثرة الأعداد المتوافدة.

صدقت يا حازم، يريدون توزيع الكمية نفسها التي كانت تقدم لعشرة على مئة. قالت جمانة.

لم ينظر أبو مراد ناحيتهم، وضع ملعقة أخرى من الطعام في فمه ثم قال:

فليمنعوا الطعام لا بأس ولكن إياهم أن يمنعوا البحر.

البحر لكل الناس قال توفيق.

ضحك أبو مراد، نعم ولكن سطحه للأغنياء وقعره للفقراء.

نعم كما الحياة، استطردت جمانة.

كما الموت أنت الصادقة.

عمي أبو مراد، اسمعني جيداً، هنا، في هذا المكان من العالم، العالم السفلي إذا صح التعبير، يستوي كل شيء الحياة والموت، ليعطونا قعر البحر ولكن ليتركوه لنا وحدنا وينصرفوا.

لن يتركوه لنا، في زمن العولمة سيضنون علينا حتى بالقبر، قد يعممون العادات الهندوسية بالتخلص من الموتى، حرق الجثث، الفقراء يجب أن يمروا على الدنيا بلا سجلات أو شواهد قبور أو قطعة أرض تخصص لهم، أنت تعرفين نحن في زمن الاستثمار الكبير كل شيء بثمن.

للأسف يا عم أبو مراد، كلامك صحيح، علّقت جمانة.

متى رحلتك إن شاء الله؟

عفواً ذكرني باسمك؟

حازم، أنا اسمي حازم.

أهلاً وسهلاً، رحلتي عندما يشاء البحر أو خفر السواحل، ألم نخرج من بلادنا عندما شاءت الحرب ذلك؟

عندما شاء الله.

وما مصلحة الله يا حازم بطردنا نحن الفلسطينيين من فلسطين ثم من سورية ومن لبنان ومن العراق ومن كل بقعة من الجغرافيا المحيطة بفلسطين، اسمعني جيداً يا ابني، الله لا يتدخل في إيذاء الناس فكيف بتشريد شعب كامل، عندما أراد الطغاة الكبار ذلك، حدث هذا الشيء، المسألة هكذا لا أكثر.

تبادل الثلاثة نظرات مواربة تجاه هذا الشخص الذي لقوه مصادفة على الغداء، كان هادئاً كحكيم وثائراً كمقاوم.

متى قررت الخروج من سورية؟

مسح فمه بمنديل ورقي ودون أن ينظر إليهم، توقف وحمل صحنه ومضى نحو الطاولة التي توضع فوقها الصحون الفارغة:

عندما رأيت منزلي يحترق وولدي يسألني لماذا؟

لم أملك جواباً عن هذا السؤال كما أبي لم يملك جواباً عن سؤال مماثل سألته إياه سابقاً، لماذا؟ لماذا حل بنا هكذا، وضع الصحن على الطاولة ورجع وأسند كلتا يديه إلى الكرسي الذي يجلس عليه حازم، نظر ناحية توفيق وجمانة ثم قال:

عندما تنعدم الأجوبة يصبح الرحيل أفضل صدقوني، أستأذنكم الآن.

يمكننا أن نتناول الشاي معاً إذا أحببت، قالت جمانة.

مساء إذا كانت لديكم الرغبة، الآن عليَّ أن أرتاح قليلاً.

حسناً كما تشاء.

إلى اللقاء.

إلى اللقاء....

حزين يبدو عليه هذا الرجل.

ألم أقل لك يا توفيق نحن في زمن الحزن، صدقني، عندما تنقلب الأحوال على أمة تصبح المصائب من كل حدب وصوب.

لكل منا قصته الحزينة المفجعة التي جعلته على أبواب هذا البحر، الكارثة أننا وعندما نكون على الشاطئ لا يتذكرنا أحد وإذا غرقنا نصبح خبراً مؤسفاً على شاشة التلفزة، أما إذا وصلنا إلى الضفة الأخرى فسيحسدنا الجميع، معادلة غريبة، قال حازم.

سيحسدوننا على الغربة والوجع ورمي كل ما جرى في الماضي وراء ظهرك، ستذهب إلى أوروبا خالي الوفاض إلا من ذكرياتك وأوجاعك، إيييييه أحرقت الحرب الأخضر واليابس والأسود والأبيض، والأخطر أنها أحرقت أرواحنا بنار التفجُّع، لكل منا العديد من الأحباب فقدهم في حوادث مفجعة، أنا مثلاً فقدت زوجي وكل عائلته، اثنين من إخوتي والعديد من الصديقات والأصدقاء، هذا الإنسان الذي بنا تشظى.

تدخل حازم:

أصبحت متشوقاً إلى سماع قصته.

هل تريد أن تضيف قصة حزينة على ما تحمله من قصص؟ وعلى ما رأيت يا حازم؟ ملايين الناس من أولاد شعبنا لكل منهم كارثة وليس قصة فقط.

صدقت يا توفيق، قالت جمانة ومع ذلك يبدو هذا الشخص مختلفاً نوعاً ما، يعطي للحزن حقَّه، الحزن موهبة يا صديقي كل الناس تحزن ولكن ليس كلهم يعرفون كيف تحزنون.

يدخل شخص يعرفونه كلهم، رافعاً صوته واضعاً (نكاشة أسنان)

في فمه، يدخل إلى البنسيون كعادته ويملأ الدنيا ضجيجاً، دخل بسترته السوداء الكالحة التي يبدو أنه يملكها من سنين طويلة:

اجلبوا الطعام بسرعة قال ذلك بينما سحب كرسياً بجانب حازم وجلس، وضع رجلاً على رجل حتى أصبحت رجله كزاوية قائمة:

هيّا هيئوا أنفسكم، اقترب الرحيل أيها السيدات والسادة، قال ذلك وهو يضغط (بنكاشة الأسنان) على أسنانه.

متى يا أخ مصباح؟ قال حازم.

قريباً جداً، لقد اكتمل عددكم اللازم لنقلكم، في رحلة البارحة وصلت مجموعة كادت تموت كلها قبالة السواحل الليبية، وحقيقة مات معهم الكثيرون ومن نجوا جاؤوا إلى هنا، قال ذلك وأنزل رجله ثم نظر ناحية النادل رافعاً صوته:

هيًّا بسرعة إني جائع.

أطرق توفيق رأسه واضعاً إياه بين يديه.

ما بك يا أستاذ توفيق حزين؟ سأله مصباح.

وما رأيك؟ ألا يجب أن أحزن؟

لا بالعكس عليك أن تحزن ولكن كان عليكم أن تفكروا أكثر قبل أن تقوموا بتلك الحرب.

أها؟ ولو لم تقم تلك الحرب كيف كان بإمكانك أن تعمل؟ وكيف بإمكانك أن تجني كل أولئك الأموات؟ موتنا شرط حياتكم تذكر ذلك.

آآآآآآآآ، حياتنا؟ صرح بحقيقة نظرتك لنا يا هذا، لا بد أنك

من الذين يصدعون رأسنا بالصحف والتلفاز حول حقوق الإنسان والاتجار بالبشر أليس كذلك؟ بالله عليك ألست من هؤلاء؟ قل لا تشعر بالخجل. اعتدل في جلسته كمن يستنفر للعراك بيديه، اسمعني جيداً يا هذا وتعلم مني، أنا لم أدخل إلى الجامعات ولم أتعلم بين صفوف الطلبة المجتهدين أمثالك ولم أجلس الليالي أدخن وأشرب الويسكي وأنظِّر على المساكين، اسمعني جيداً، أنا لست مسؤولاً عن الحرب التي قامت في بلادكم ولست مسؤولاً عن موتكم المجاني اليومي دون معنى ولا سبب.

حاول توفيق أن يتكلم فمنعه مصباح قائلاً:

لا تقاطعني أيها المؤدب سأعطيك الحق بالرد لا تخف، ولكن عليك أن تفهم أن اتفاقية دبلن وقوانين الاتحاد الأوروبي وكل ما يقال وقيل ويصير ويحدث في كل أرجاء حوض المتوسط لا يعنيني بفلس أفهمت؟ ما يعنيني هو أنكم تموتون في بلادكم حتى دون أن يذكر ذلك في وسائل الإعلام، أصبحتم أرقاماً لا أكثر، تأتي على ذكركم وسائل الإعلام دون أن يهز المذيع رأسه أسفاً وفوق هذا كله تذهبون إلى دول الجوار التي، وحتى قبل يوم واحد من حربكم، كانت يافطات حسن الجوار والإخاء تملأ الشوارع وتملأ الأزقة بينكم، وكان رؤساؤكم ومسؤولوكم لا يتوقفون عن زيارة بعضهم بعضاً، وفجأة لم تعودوا أخوة وأصبحت حتى الخيام أضيق من أن تستقبلكم وأصبحت الأحزاب والجمعيات والهيئات كلها ليس لها شاغل سوى اللاجئين

وقضية اللاجئين ومرض اللاجئين وما فعله اللاجئون من ضغط على البنية التحتية وليس هذا فقط، الجميع يزايد عليكم، الجميع، الصليب الأحمر والهلال الأحمر والجهات السياسية ووزراء المال في هذه الدول تشحذ عليكم، أتحب أن أذكرك كم من طفل أو طفلة اغتصبوا ورموا في القمامة في هذه الدول التي بالأمس فقط فتحتم بيوتكم لها؟ وكانت شوارعكم تمتلئ بيافطات (شعب واحد في دولتين)؟ هل تريد أن أذكرك بأن تلك الدول التي تدعي دعم ثورتكم ونضالكم العظيييييم من أجل (الديمقراطية) ونصرة الإسلام، هههههههههههه، كيف حتى لا تعطيكم التأشيرات لدخول أراضيها؟ والآن ماذا أفعل أنا وأمثالي؟ أنا أقول لك، نحن نقطة الضوء الوحيدة في هذا العالم المعتم، توقّف واتجه نحو النافذة وكل من في المطعم ينظر إليه:

أنا أعطيت هذا البحر هويته وأعدته إلى براءته الأولى، إلى زمن ما قبل الرايات وما قبل الإعلام وما قبل الاتفاقيات والآن جئت لتلومني؟ عد إلى ما كنت إليه ولا تعبر هذا البحر إلى دول تهربون إليها من موتكم وتخوضون ذلك الموت لتسبوها وتشتموها وتقولوا عنها إنها دول عدوة وكافرة وإمبريالية، إلخ،تنهد قليلاً وتناول كأس الماء الموجودة على الطاولة قبالة توفيق، شرب الماء وجلس ليلتهم طعامه الذي جلبه له النادل.

إهدأ أخ مصباح، لم يقل توفيق ما يستحق هذا كله.

يا أخت جمانة، أنا أعرف تماماً نظراتك إلي ولكن من أنا؟ أنا

واجهة لا أكثر، تستطيعين أن تقولي إنني مسؤول علاقات عامة لا أكثر بين الهاربين أمثالكم وبين المرتشين من الشرطة وخفر السواحل وغيره، أتحسبين أن تهريب الناس مسألة سهلة ويسيرة حتى تمر على كل تلك الدول بيسر وببساطة؟ أنتم حمقى.

نحن؟ من تقصد نحن.

عدَّل من جلسته وخفض صوته ثم أكمل:

نعم أنتم شعوب الشرق، تندلع بينكم حروب ويذبح بعضكم بعضاً ثم تتسابقون من يهرب إلى أوروبا أولاً فتأخذ أوروبا خيرة شبابكم وبناتكم وتبقي لكم المجرمين والسراق، أسند ظهره أكثر إلى ظهر الكرسي ووضع نكاشة أسنان جديدة في فمه ثم قال:

بشرفي أنتم مشروع ناجح، يشترون نفطكم الخام ليصنعوا منه المواد ثم يصدرونها لكم وأنتم تقومون بتربية أولادكم وتعليمهم ثم تتقاتلون فيهرب أولادكم إليهم، ثم تندهشون لماذا قلت عنكم حمقى؟ نفطكم وغازكم وقمحكم وشعيركم وعلماؤكم وفي نهاية المطاف يدخلون إلى أرضكم معززين مكرمين وبطلب منكم أيضاً، بئس القوم أنتم، وضع رجليه على الكرسي المقابل له وشرد من النافذة نحو البحر، تبادل الحضور النظرات بدهشة لمنطق هذا الرجل، أين تعلم كل هذا الشيء يا ترى؟ سألوا أنفسهم وقبل أن يغادر صالة الطعام التفت إليهم وقال لهم:

لا بد أنكم تسألون أين تعلَّم هذا الرجل كل هذا أليس كذلك؟ أشار بإصبعه ناحية البحر ثم أكمل:

هناك أيها السادة في البحر ألا يأكل السمك الكبير الصغير والقوي الضعيف؟ هناك تعلمت ذلك القانون ولن أنساه.

خرج مصباح من المطعم ونظروا بعضهم إلى بعض في صمت، تنهدت جمانة واقتربت من النافذة:

سنبحر إذاً، سنجتاز المرحلة الأولى من العبور الكبير، ذلك العبور الذي تحتاج إليه الروح قبل أن يحتاج إليه الجسد، ذلك العبور الذي ربما كان حظنا السيىء أو الطريق الذي سيرميك به القدر مصادفة دون أن تختاره رغم أنك مقتنع تماماً أنك فكرت وقررت بأن تسلكه، أدارت ظهرها وفتحت ذراعيها رافعة كتفيها ماطة شفتيها استهزاء:

سنبحر إذن، لا تنسوا نصيحة مصباح بأنه علينا أن نحزم حقائبنا جيداً وأن نحزم وصايانا أيضاً، أدارت ظهرها ناحية البحر وأشارت بإصبعها ثم قالت:

فهذا البحر غدار كما يقولون، هذا البحر الذي يبلع يومياً المئات ممن ركبوا موجَهُ لينتقلوا من الشواطئ المصرية والليبية والتونسية والجزائرية.

....

ماذا يحل في جنوب الكرة الأرضية؟ ماذا يحدث في العالم العربي؟ وماذا يحدث في إفريقيا؟ ماذا يحدث في هذا الكون؟ ماذا تحمل هذه القوارب من شباب وفتيان وعائلات تريد أن تركب الموت هروباً من حياة أسوأ من الموت علّهم يرون ذلك الحلم الذي يسمى

أوروبا، أوروبا، العدوة والصديق، الضد والضد نفسه، الحب والكره، المتعة والصبر، النشوة والخوف، أوروبا كل يوم يأتي هذا الاسم، هذا السؤال الصعب، كل يوم يأتي على ألسنة ملايين الشباب الذين يعيشون تحت خط البحر المتوسط أو في شرقه، أولئك الشبان الذين يعيشون على أراض منحها الله النفط والغاز والفصول الأربعة وكل خيرات الدنيا ومنحها أيضاً فساداً وحكاماً يقطرون ظلماً وعتياً، قيل يوماً إن أحد الأفارقة باع قطعة ألماس تساوي مليوني دولار من أجل دراجة هوائية من أحد السياح وأعلن الخبر على أنه انعكاس لجهل الأفارقة السود وللدهاء الخارق للأوروبيين، لكن حقيقة هذا الفتى أنه باع القطعة بحلمه، كان يحلم بدراجة هوائية طوال حياته وهو الآن يملكها، ماذا يريد المرء من ألماس الدنيا لو لم يحقق حلمه؟ هذا الإفريقي سعيد أكثر من الغالبية منا صدقوني.

قال ذلك أبو مراد وقد وضع الكأس الخامسة من الفودكا التي يحبها على الطاولة بينما جمانة ما زالت شاردة بملامح وجهه الأسمر وأسنانه التي نخرها السوس وتغلب على معظمها فأسقطها.

لماذا تحب الفودكا يا عم؟

ابتسم أبو مراد ونظر ناحية توفيق وقد شرد بملامح وجهه، صمت حوالى الدقيقتين، أشعل سيجارته التي أعطاه إياها توفيق ثم قال:

لأنها مثل الزمن، غادرة، تشربها وتغب منها وفجأة تسكرك، هذه

هي الحياة التي ترميك فجأة أرضاً، الحياة فودكا ولكنها أكثر مرارة بقليل.

حدثنا عن مصر، سألته جمانة هكذا وعدتنا.

هههههه قهقه بصوت عالٍ:

أم الدنيا، وارتشف الكأس هذه المرة دفعة واحدة.

نظر ثلاثتهم بعضهم إلى بعض، بدأوا يخشون موجة سكر عارمة قد تجتاح أبا مراد في أي وقت.

لا تخافوا أيها الشباب، بلعت من مرارة الدنيا ما يكفي لكي أصمد أمام الفودكا.

متى وصلت إلى مصر؟

وصلت إلى مصر قبل أربعة أشهر تقريباً، وكنت أنوي البقاء فيها، تدخل الجيش في السياسة وانقلب على الرئيس المنتخب وزج به في السجن، ولأسباب لم أفهمها حتى الآن بدأ التضييق على الفلسطينيين.

لماذا؟

هل تريد يا حازم ما قيل في الإعلام؟

لا الحقيقة؟

الحقيقة أننا الحلقة الأضعف، في كل بلد عربي تحدث كارثة يبحثون عن الفلسطيني لكي يلصقوها به، يعرفون أنه ضعيف لا ظهر له، ثم هناك من يوصي دائماً بأن تصبح حياة الفلسطيني في العالم العربي جحيما كي يرحل إلى أبعد نقطة بعيداً عن فلسطين.

إلا الله، قال حازم.

لو كان الله ظهرنا لما ذهبت أرضنا.

لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ولا يغير الأقوام ما بأنفسهم حتى يشاء الله، وبالتالي المسألة ليست عندنا صدقني.

تدخلت جمانة:

على رسلك يا حازم، دع العم يتكلم.

غـادرت دمشق إلى القاهرة، نجوت بعائلتي من اشتباكات استهدفت فجأة الحي الذي نقطنه أو بشكل أدق المخيم الذي كنت أقطنه مع عائلتي، المخيم الذي فتحت عيني عليه فأصبح هو وطني في زمن بيع الأوطان، تنهد قليلاً وطلب من توفيق أن يسكب له كأساً جديدة من الفودكا، ابتسم توفيق وسكب الكأس ثم أردف:

سهرة الشاي أصبحت فودكا، يا رب تلطف بنا في البحر قريباً.

ضحكوا وضحك أبو مراد وهو يعاود الشراب ثم قال:

لا تخف يا بني سيتلطف الله بنا، فحتى لو مت في البحر فأنت أقله لن تموت على أرض دولة ما، ستموت حراً فقط لأنك حاولت أن تعيش حراً.

المهم أني غادرت دمشق، دمشق التي ما كنت أتمنى مغادرتها إلا إذا رجعت إلى الخليل أو الناصرة أو القدس، دمشق قلبي وروحي، غادرت دمشق بعدما قمت بجولة على كل المناطق التي أعشقها، مررت

على باب توما وباب الجابية، صليت في المسجد الأموي وسبَّحت الله بكنيسة حنانية، عبرت باب شرقي ولم أتمكن من توديع الغوطة لأنها ساحة حرب، طلب من حازم أن يفتح الشباك، الفودكا تشعل الإنسان فيصبح بركاناً، جمانة فردت شعرها وارتدت سترتها اتقاء للبرد الذي هب فجأة من البحر وأبو مراد شرد ناحية النافذة، وتوفيق سكب كأساً يتلذذ بها مع أبي مراد، غبَّ أبو مراد من سيجارته غبَّة قوية ثم أكمل:

عندما نزلت في مطار القاهرة، استقبلني غبار القاهرة، واستقبلتني طيبة أهلها، كانت هناك خطة لإظهار الحكومة بمظهر الفشل، كل الشوارع قذرة والمرافق شبه معطلة، كانت القمامة تملأ الشوارع وكأنها ليست قاهرة المعز التي قرأت عنها أو عرفتها، منذ لحظة وصولي حاولت البحث عن عمل، حسبت أن اللغتين الأجنبيتين اللتين أتقنهما إضافة إلى شهادتي بهندسة المعلومات ستفيدني ولكن عبثاً، فأنتم تعرفون مصر والاقتصاد العربي عموماً، لذلك وبعدما رأيت صور بيتي وهو يحترق، وبعدما نزل البلطجية إلى الشوارع مسعورين يبحثون عن كل فلسطيني ليمزقوه، قررت أن ألجأ إلى البحر.

لذلك قررت القدوم عبر تركيا إلى أوروبا؟.

لا أبداً قررت اجتياز المتوسط إلى أوروبا.

أها وما حصل بعد ذلك؟

هنا تبدأ القصة، عدَّل من جلسته وأدار كأس الفودكا أمام عينيه متفحصاً إياها ثم قال:

فعلاً هنا بدأت القصة.

تواصلت كما يفعل كل الناس مع مهرب، كان مصري الجنسية من أصل فلسطيني وقد قال لي إنه يراعي وضعنا نحن الفلسطينيين وخصوصاً أننا نعتبر من أبناء جلدته؛ أنتم تعرفون أننا شعب يستحق الشفقة، حيث إننا أكثر شفقة فيما بيننا وكل منا يعتبر نفسه أكثر حظاً من الآخر فيسعى لمساعدته، قال لي إن أموري تامة وإن هناك رحلة ستغادر الميناء خلال يومين، وبعد أن حزمت حقائبي وتهيأت للعبور أخبرني بأن عليَّ أن أسافر إلى ليبيا أولاً لأنّ الطريق المصري أصبح صعباً جداً وأن الأمور من ليبيا أكثر سهولة.

رضيت بالأمر الواقع وسافرت إلى ليبيا لكي أغادر من هناك.

قاطعه حازم سائلاً:

عفواً عم، هل لي بسؤال طرأ لي الآن وأريد أن أسألك إياه قبل أن أنساه؟

طبعاً تفضل.

ماذا تريد من أوروبا بعد كل هذا العمر؟ أنا آسف ولكن ألا تعتقد أنك ستهدر وقتك ببدء حياة جديدة في أوروبا؟.

ابتسم أبو مراد وسكب كأساً جديدة من الفودكا وقد احمرت عيناه:

يا ولدي جواز السفر الفلسطيني لا يصلح للذهاب به حتى إلى فلسطين فماذا تريد مني؟ ولا دولة عربية أعطتنا وضعاً قانونياً ثابتاً

بحجة الحفاظ على حق العودة والخشية من توطين الفلسطينيين، في لبنان يخافون أن يصبح المسلمون أكثر إذا تجنس الفلسطينيون وفي سورية يخافون أن تصبح المخيمات بؤراً قانونية وفي الأردن يخافون على الحالة العشائرية من طغيان اللون الفلسطيني، فقط في السماء حرّك كفه ونظر محدقاً إلى وجه حازم: أعتقد نعم فقط في السماء لا يكترثون كثيراً للوننا ولكن أصدقكم القول أخشى أن أصعد إلى السماء فأجد مخيمات تنتظرنا، لا جنة ولا نار بل خيام على أبواب المنطقتين لا أكثر، أفهمت الآن؟ أريد دفتراً صغيراً لأولادي يستطيعون العبور به إلى العالم، دفتر صغير اسمه جواز سفر دولة محترمة.

فهمت أجاب حازم.

أكمل يا عم، قالت جمانة تحثه على استكمال قصته.

سافرت إلى ليبيا عبر سيارة أتى بها لي المهرب، اجتزت الصحراء وبدأت تتلقفني العصابات الليبية أو الثوار أو المجاهدون، حقيقة لم أستطع التمييز بينهم فهم جميعاً متشابهون ولكن قد يختلفون من حيث الأخلاق. لا أدري لم أرَ شيئاً من هذا، كنت أدفع النقود لكي أمر من كل منطقة، إتاوات في كل مكان، بقيت هكذا حتى وصلت إلى المنطقة الساحلية الليبية أظن أن اسمها زوارة، نعم زوارة.

وماذا بعد؟

شهر كامل من الانتظار، المهرب المصري فلسطيني الأصل اختفى وتغير رقم هاتفه وأنا الآن في ليبيا بين أناس لا أفقه جل كلامهم،

وهم ليسوا أكثر من قراصنة حقيقيين، نصف رغيف من الخبز فقط في اليوم مع القليل من الجبن أو ما شاكل، وفي كل ليلة يدخل أحد صبيانهم سكراناً ومسلحاً ويحاول الاعتداء على إحدى النساء الموجودات معنا، كنا كثيرين ومحشورين كمدجنة، سوريين وفلسطينيين وأفارقة سوداً وعرباً، كنا اللون الفقير والمشرد على راية هذا العالم الكاذب، كنا انعكاس الكارثة، وكنا استمرار نزف شلال الذل إلى الأبد، حقيقة ثقل رأسي، لا أدري إن كان إلى الأبد ولكن مؤكد أن ذلنا سيطول ويطول.

بعد شهر من الانتظار حضر إلي أحدهم وكان نحيلاً وذا أسنان منخورة بشكل كامل، أسمر اللون كالكحل يتكلم بعربية ثقيلة عشريني الهيئة، طلب مني الاستعداد بسرعة وسألني كم أحمل من النقود، لم أجرؤ على الكذب قلت له إن بحوزتي أربعة آلاف دولار فأخذ منها ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار وأبقى لي خمسمائة وعندما سألته عن سبب أخذ النقود أجابني أن المصري لم يعطه قرشاً واحداً وأنني لن أغادر حتى أدفع وفعلاً دفعت.

في الليل حوالى الساعة الثانية فجراً، تم استدعائي وكأنما إلى حلقة إعدام، وحشرنا في القارب، كان القارب من قوارب الصيد العادية أو التي ندعوها بالعامية (فلوكا)، كانت مهيأة لحمل خمسة وعشرين شخصاً على الأكثر، للأسف كان الوضع زرياً.

اقترب توفيق وسكب لأبي مراد الكأس العاشرة مع قليل من عصير الليمون:

انتبه يا عم أبو مراد، الكأس العاشرة أعمتني ثم ضحك.

ههههه قهقه أبو مراد، العمى عمى القلب يا ولدي وبهذا أنا أعمى منذ زمن طويل، منذ خلقت ولعنتي معي معلقة بحبلي السري، لاجئ لا أكثر.

المهم ركبنا في القارب، كنا أكثر من مئة وخمسين فرداً، من كل الأطياف والألوان والأجناس والأصناف نشترك في شيء واحد فقط، البؤس، ركبنا القارب وكان يقوده فتى إفريقي أسود. فهمت لاحقاً أن الليبي لا يركب البحر أبداً بل يدفع هؤلاء، حشرنا بالقارب تحت وطأة السلاح، والاعتراض قد يكلفك حياتك كلها وبطلقة صغيرة من المهرب، تم زجنا في القارب ووضعنا بعضنا فوق بعض، وضعوا على رجلي طفلتين وأمهما كانت إلى جانبي وأبوهما فهمت لاحقاً أنه مفقود في الحرب السورية ولا يعرفون عنه شيئاً منذ عامين، البحر هائج والقارب يدفعه الموج، وأصوات خشبه تصطك في أرواحنا قبل آذاننا، وطبعاً شعرت باقتراب النهاية، لم أرض قط أن أناجي الله في تلك اللحظة، لقد شعرت أن انتحاراً جماعياً سيحدث فما جدوى المناجاة؟ قررت أن أحتفظ بكرامتي حتى النهاية، أنا الذي جئت من قوم تخلى الله عنهم منذ ستين عاماً لماذا يأتي الآن لينقذني من هذه الكارثة؟ لو أنقذ وطني كان أجدى.

ركبنا جميعاً وفي خلال نصف ساعة انطلق الزورق، محركة يعني والماء يتساقط علينا، سعاراً جماعياً حدث، صراخ أطفال وولولة فزع

نسائية ورجال كانوا فاقدين رجولتهم حد التخنث النفسي، تقيَّأت أول فتاة فوقي، فلطخت قميصي وبنطالي، وبعد أقل من دقيقتين تقيأت الثانية أيضاً، أصبحت رائحتي مقرفة لي فكيف للآخرين، لقد تقيأوا عليَّ وتقيأت على العالم حزناً وقرفاً، تمنيت أن ينشق البحر ويبلعنا ونرتاح؛ فالفقراء الموت أكثر راحة لهم أقله حتى يمنعوا الأغنياء من التلذذ باستغلالهم، ساعة مضت، ساعتان وإذ بأمنيتي تتحقق، لا يحتمل القارب كل ذلك الوزن الزائد، وينشطر من أسفله نصفين، لقد كان يوم القيامة حقاً، الجميع صرخ وبمن فيهم أنا، يا اللللللله، يا اللللللللله، انقسم القارب والسائق الإفريقي قفز في البحر أول الناس، التفت إلى يميني لم أعد أرى والدة الطفلتين، كل هذا بسرعة البرق بأجزاء من الثانية، الطفلتان تتمسكان بي وتصرخان، وأنا لم أعد أعرف ما عليَّ فعله، يا الله شهقت وصرخت وأدركت أني في الماء الآن وأن الطفلتين تضغطان عليَّ إلى الأسفل وأني أختنق، للوهلة الأولى تمنيت لو أنه حلم، شيء ما يخطر لي في المنام، تمنيت ذلك حقاً، ولكن أيدي الفتاتين تضغط عليَّ بشدة في محاولة منهما للنجاة غالبت نفسي ودفعتهما وأخرجت رأسي ولكنهما بقيتا متعلقتين بي كنت أنا بالنسبة إليهما حياتهما وهما كانتا موتي وكان لدي القليل، القليل من الوقت حتى أتخذ القرار بأن نموت معاً أو أن تموتا وأحيا أنا، كنت وفي خلال أجزاء من الثواني أناشد الله وأصرخ من داخلي إن كنت موجوداً ساعدني، الآن في هذه اللحظة هاتان الطفلتان تحتاجان

إليك أكثر مني لأني ضعيف متعب وعجوز، قلت هذا كله خلال أجزاء من الثانية وكنت مصراً أن الله يسمعني وأنه قادر على فعل شيء، كيف يكون بوسعك إنقاذ طفلتين من الموت ولا تفعل؟ انهارت مناعتي الأخلاقية أمام شعوري بالموت المحتم وعندما بدأ الماء ينساب إلى رئتي توقف العالم ولم يعد شيء يستطيع أن يقف بوجه غريزة البقاء لدي، عندها دفعتهما عني بكل قوتي وأخرجت رأسي من الماء، نظرت يمنة وشمالاً بسرعة، رأيت إحداهن فقط أما الثانية فغابت عن نظري، حاولت جذب الفتاة التي رأيتها ولكنها من خوفها أصبحت تجذف في الطريق الخطأ وهي تصرخ بلا جدوى، خف صراخها مع ضعف قواها وضعف همتي، في تلك اللحظات استطاعت عيناي أن تلمحا من أصبح طائفاً على الماء ميتًا ومن ما زال يصرخ ومن يهرب ومن يحاول أن يتشبث بقطعة خشبية من القارب، كان الموت يجوب المكان ولا يكترث وينتقي كما شاء وأراد، أدرت وجهي نحو الشاطئ وسبحت وسبحت وسبحت، أطرق أبو مراد رأسه وبلع الكأس الثانية عشرة من الفودكا دفعة واحدة وبكى، نعم بكى ذلك النحيب الشديد، ثم أكمل:

لم يتدخل الله لكي ينقذهما، كانتا وردتين، شمعتين، طفلتين مثل الورد خطفهما اليأس، غرقت هاتان الفتاتان عندما غرق العالم العربي في جهله، يا ربي لماذا فعلت هذا، قال ذلك وارتمى في حضن جمانة كالطفل الصغير.

لم تقاطعه جمانة، تركته ومدت يديها في خجل لتعانق كتفيه،

اختلط لديها رائحة سكره وتبغه مع حزنه فصارت عجينة الشرقي بامتياز، ما هو الشرق إذاً؟ هو خليط عجائبي من الهزيمة والخيبة والضياع، هويَّات متناحرة وأهداف متباينة وأمة دخلت أكثر من عشرين حرباً في أقل من مئة عام خسرتها كلها، أية أمة نحن، عاد أبو مراد ليقول هذا بعدما انتهى من نحيبه وبعدما أشبع برائحة جمانة، وطن مسخ نحن، حازم وتوفيق يحدقان إليه ولا يعطفان عليه لأنهما مثله، كلنا نحتاج إلى من يعطف علينا، ربَّتت جمانة كتفيه ومشت إلى جانبه محاولة إيصاله إلى غرفته، نظر إليها وابتسم ثم انحنى محيياً إيَّاها بطريقة مسرحية:

سيدتي كفاك اليوم مني ما كفاك.

فتسمرت في مكانها وأكمل هو طريقه مترنحاً يدندن (منتصب القامة أمشي مرفوع الهامة أمشي) ويضحك ويقهقه ثم يدندن (منتصب القامة أمشي منصوب الهامة أمشي)...

الفصل السادس

الرجاء الجلوس وربط الأحزمة بشكل جيد، الطائرة شارفت على الإقلاع أهلاً بكم على الخطوط الجوية اليونانية، قالت ذلك المضيفة بينما الركاب يربطون أحزمتهم، أنزل أبو مراد قبعته لتغطي جبينه وعينيه وأغرق وجهه في النافذة، حبيبات المطر تضرب الأرض بعنف كمن يؤنبها على وجودها أسفله، حركة المسافرين وعمَّال المطار تحت على مدرج الطائرات، حقائب تحمَّل ويتم إنزالها، مسافرون يهرولون نحو سلالم الطائرات تفادياً للمطر، وآخرون لا يرون الأرض والمطر إلا من نافذة الطائرة وأبو مراد لا يراهم جميعاً، كان يرى شيئاً آخر. أنزل أبو مراد قبعته أكثر، كتم صوته قدر المستطاع ليخفي دموعه التي تساقطت بغزارة، يوم صعب هذا أليس كذلك؟ قال لنفسه، لم ينتبه أحد له بعد، الطائرة أقلعت وزاد بكاؤه أكثر، لم يكن يعرف بالضبط ما هو السبب الرئيسي وراء سقوط دموعه كحبات المطر التي تتساقط في الخارج ولكن كانت دموعه أثقل، لقد أثخنها الحزن كما أثخن قلبه، كم متعب هذا القلب الذي تعلَّق به الحزن كحبل سُرِّي، كم متعب هذا القلب الذي نبض أول نبضة بلا وطن وكان لنبضته الأولى هوية مكتوب في

ترويستها (لاجئ) وفي أسفل الترويسة بالحبر السري المخفي الذي لا يراه أحد (يملك حق عودة بيع منذ دهر)، جفَّف دمعه قدر ما يستطيع ولم يكترث لتجفيف القهر في روحه لأنه دائم لا يجفَّف، خصبٌ هذا القهر فينا كسهول الجليل، خصب كبيارات البرتقال في يافا، خصب كوجعنا الذي لا ينطفئ، جفَّف الدمع عن عينيه ونظر إلى يمينه، أصلح من جلسة الطفلة النائمة بوداعة بجانبه والتي مرَّ بها من نافذة المطار اليوناني بعدما تلقَّى ابتسامة بشوشة من موظفة المطار، أصلح من جلسة الطفلة وابتسم ابتسامة صفراء وتنهد، أخرج جواز السفر من جيبه، جواز سفره المزور الذي اشتراه من أحد المزورين في اليونان، غمس وجهه في جواز السفر وأجهش بالبكاء أكثر، كانت النجمة السداسية مرسومة على واجهة الجواز، لقد اضطر أبو مراد اللاجئ الفلسطيني ابن السابعة والخمسين عاماً أن يجتاز المطار اليوناني بجواز سفر إسرائيلي، بشعاً ذلك اليوم ومتعباً بالنسبة إلى رجل قاتل في لبنان في صفوف الثوار الفلسطينيين ضد إسرائيل ونشط في معظم المنظمات اليسارية المناضلة ضد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، أبو مراد ميت اليوم، أبو مراد المناضل والمثقف والنشيط والقادر والذكي والمحب، مات اليوم تحت وطأة هذا القهر، مات اليوم تحت وطأة هذا المر، مر أن تحمل جواز سفر عدو لك لتمر إلى دولة تريد أن تطلب اللجوء إليها، ربَّتت المضيفة كتفه وسألته بلطافة إن أصابه مكروه وإن كان يحتاج إلى مساعدة، شكرها بود وأخبرها أنها دموع

فرح لا أكثر لأنه سيزور أرض أجداده الإيطاليين الذين هاجروا إلى فلسطين منذ سبعين سنة، قالها وغمس وجهه مرَّة أخرى في النافذة وابتسمت المضيفة مرحبة به وقبل أن ترحل طلب منها أن تعد له كأساً من الفودكا إن أمكن، ابتسمت موافقة ورحلت تأتي بطلبه، مدَّ يده إلى حقيبة الكتف التي يحملها وأخرج دفتراً جديداً اشتراه من مطار أثينا، اختاره من الدفاتر ذات الأوراق الحمراء وقرر أن يكتب رحلته بالحبر الأسود، مزق الغلاف المصنوع من النايلون الذي يغطي الدفتر وبدأ يكتب، رسم قوساً وكتب (رحلتي) ثم أغلق القوس تنهد وقال:

من أين أبدأ؟ من جمع أغراضي في ليلة حزيرانية من فلسطين وهربي بها من دون وجهة محددة؟ أم من ليلة حزيرانية أيضاً عندما جمعت أغراضي من مخيم اليرموك الدمشقي من دون وجهة محددة؟ شرد قليلاً وقال:

الأمور بخواتيمها وقرَّر البدء بالرحلة من نهايتها، كتب أبو مراد:

في الخامسة فجراً من تاريخ ٢٧/ ١٢/ ٢٠١٣ دخل مصباح صباحاً إلى الفندق وهو يصرخ:

على الجميع أن يستيقظ، الآن، وبدأ يدق على أبواب الغرف بقوة، ويصيح ويصرخ:

هيَّا أيها الجمع، أيها البشر، استيقظوا، جاء وقت الرحيل.

قفزنا جميعنا من نومنا، وكنَّا قد جمعنا أغراضنا منذ حوالى الثلاثة أيام، منتظرين هذا اليوم بلهفة، لقد قتلنا الانتظار، بدَّل الجميع ملابسهم

على عجل وانطلقنا نحو بهو الفندق حيث بانتظارنا مصباح، مصباح المستشرس بطريقة لم نشاهده مثلها من قبل، حكَّ أنفه قليلاً وبعد أن تأكد من وجود الجميع نظر إلينا كقرصان وقال:

وقت المزاح انتهى، الآن لن نلعب الأتاري، هذا البحر ليس في مدينة الألعاب إننا سنجتازه لنصل إلى دولة أخرى، نحن هنا من أجل أن نقوم بعملية تهريب لكم، من المؤكد أن الجميع يعرف ذلك ولكني أقول لكم ذلك من أجل شيء واحد أن من كان في قلبه ذرَّة واحدة من التردد عليه أن يرجع الآن بالذات قبل أن يورطنا معه في عمق البحر فهمتم؟ همهم الجميع دلالة الفهم والموافقة.

حسناً، الآن الخطوة التالية، القارب وصل وهو في انتظارنا عند الجرف، سنتجه جميعنا نحوه ونتحرَّك رويداً، رويداً من دون ضجيج أو أصوات وليس علي تذكيركم بأنه عليكم أن تحملوا الضروري فقط من أغراضكم، فهمتم؟

همهم الجميع دلالة الموافقة على كلام مصباح.

الآن هيّا بنا، خرجنا من بهو الفندق نحو الشاطئ مباشرة، ضوء الفجر لم ينبثق بعد، مشينا بصمت وهدوء كمحكوم بالإعدام، بلا تردد مشى الجميع حتى وصلنا إلى القارب الخشبي القديم.

يبدو أننا وليمة جيدة لأسماك البحر، علّق أحدهم.

اخرس، قال مصباح، كان حازماً جداً وعلى استعداد أن يضرب أي مخالف، في الحقيقة منظر القارب لم يكن مريحاً قط، فهو قديم

قديم الجرح فينا وصغير على عددنا، كان مهيأ للرحلات السياحية الصغيرة يحتوي على اثني عشر مقعداً وفسحة صغيرة تتسع لسبعة أشخاص على الأكثر ونحن كان عددنا قد تجاوز المئة والعشرين، نظر الجميع بعضهم إلى بعض مرتعدين خوفاً، قفز مصباح بسرعة إلى زاوية القارب ورفع يده ليشاهده الجميع، الفجر بدأ بالبزوغ ونحن زاد خوفنا.

تفضَّل، قالت المضيفة وقدَّمت كأس الفودكا لأبي مراد، ابتسم ابتسامة مجاملة بعد أن وضع القلم من يده:

شكراً، قال لها.

ثبت الكأس على الطاولة المعلقة بالكرسي الأمامي له، أعاد النظر إلى الطفلة النائمة بجانبه ليطمئن إليها، أعاد إمساك القلم وكتب:

بعد أن رفع مصباح يده صرخ بأعلى صوته:

كلمتان لا ثالث لهما، من كان يريد العودة فليأخذ نقوده ويرجع الآن، لا أريد مشاكل.

يا أخي اتكل على الله، قال أحدهم.

دلفنا إلى القارب واحداً تلو الآخر وجلسنا بعضنا فوق بعض، تجربة الرحلة من الشواطئ الليبية لم تغب عن ذهني بعد، خفت، أقسم بالله إني خفت، وخفت كثيراً ولكن قلت في نفسي، ليبلعني البحر، ما يعني أن يبلعني البحر، أنا مبلوع على كل الأحوال، ما الفرق إن ابتلعتك حيتان اليابسة أو حيتان البحر؟ التصقت جمانة بي من الجانب الأيمن ووضعت رزان في حجرها، التصق بجانبي أيضاً من اليسار توفيق

وكان حازم أمامي، داخ قبل أن يتحرك الزورق واصفر وجهه، توفيق متعب ولم ينطق بكلمة وجمانة مبتسمة تحتضن رزان بقوة لا تريد أن تتركها أبداً، أغراضنا وأشياؤنا التي نحملها تخلَّصنا من معظمها من أجل الحمولة الزائدة، صعد الجميع، أطفالاً ونساء، عجائز ورجالاً وكبيرات بالسن، وصغيرات أيضاً، مجتمعاً كاملاً كان هذا الزورق، فلسطينيون وسوريون وأكراد وإيرانيون ومغاربة وأفغان وأفارقة، من كل صنف ولون، قال أحدهم مازحاً:

منطلع احلى صحن سلطة فواكه، لم يضحك أحد، يبدو أن أحداً لم يكن لديه شهيَّة لا للأكل ولا للمزاح، إلا البحر طبعاً، شهيته لأكل أمثالنا دائمة، مثله مثل الفقر والجوع والسجون، لا أدري لماذا تذكرت النوَّاب في هذه اللحظات بالذات عندما قال:

ربَّاه كل الأشياء رضيت سوى الذل وأن يصبح قلبي في قفص في بيت السلطان

ورضيت من الدنيا بنصيب كنصيب الطير ولكن حتى الطير لها أوطان لتعود إليها وأنا لا وطن لدي

هذا الوطن الممتد من البحر إلى البحر

سجون متلاصقة، سجان يمسك سجان

الله يا مظفر، ما فعل بك من خصاك؟ لا تغضب أصبحنا كلنا أمة من الخصيان والعبيد على باب القصر، قصر القتلة، قلت ذلك بينما اندسَّت جمانة بي كسنجاب يختبئ، ضحكت قليلاً وقلت لنفسي:

ممن أحميها وأنا لا أحمي نفسي؟!.

اكتمل عددنا في القارب، بعد ربع ساعة سمعنا صوت المحرك قد اشتغل منذراً بالمسير، المسافة بين اليابسة التركية واليونانية ليست طويلة، بضع ساعات فقط، حوالى الثلاث ساعات هكذا كان مقرراً لنا، لكن وبعد حوالى الساعة من إبحارنا وبعد أن غفت جمانة واندسَّت بي أكثر، خفت صوت القارب، حدثت جلبة وهمهمة وتساؤلات، وقفز قلبي من مكانه خوفاً، وصحت جمانة وبكت رزان، خرج مصباح من حجرته التي يلازمها بجانب السائق، واتجه نحو مؤخرة القارب دافعاً الجلوس لينزاحوا من طريقه حتى وصل إلى نهاية القارب بعد أن وزع لعنات على الكون كله، حاول أن يشغل المحرك يدوياً دون جدوى، حاول أن يفعل أي شيء، أن يفحص الوقود، أن يتأكد من المراوح ولكن أيضاً دون جدوى، انتصب وقد لعن الجميع بصوت عال:

ماذا أفعل الآن؟ عطل المحرك.

بدأ صوت الناس يرتفع في القارب، خوفاً من جانب، وتقريعاً لمصباح من جانب، وحاول مصباح أن يصرخ لإسكات الناس ولكن عندما تكون في وسط البحر وبين الماء، والغيوم بدأت تبشرك بيوم ماطر وأنت تجلس بمساحة لا تتسع لفرخ عصفور بالله عليك ما عندك لتخسره؟

وقف أحد الركاب وصرخ بوجه مصباح:

هي أنت، صمتنا على تصرفاتك كثيراً ليس خوفاً منك ولكن نريد

أن نرحل ونخلص والروح غالية يا مصباح والله بطفيك وبخليك بلا ضو هه.

تلعثم مصباح بالكلام:

سأجد حلاً، قال.

اندس في حجرة السائق وحاول على ما يبدو إرسال رسائل نجدة للشاطئ ولكن لم يكن القارب من النوع الذي يمكن أن تقتنع أن جهازه اللاسلكي ما زال على قيد العمل، مرَّت الساعات بطيئة، الجوع بدأ يتسرب إلى بطون الجميع والبرد أكثر ووجع الأعضاء من طريقة الجلوس الصعبة بل المستحيلة لوقت طويل، وبدأت الشجارات الطفيفة بين الركاب وخصوصاً النساء والأطفال، الرضع لا يتوقف بكاؤهم ومصباح اختفى صوته تماماً، لا يوجد أي إمكانية لطلب المساندة، هكذا اتضح أخيراً وقد كذب بأن لا أحد يستجيب للجهاز اللاسلكي والحقيقة أن الجهاز لا يعمل.

حلَّ المساء، وزاد البرد كثيراً، حاولت أن أثني ظهري قليلاً كي أصبح بوضعية شبه نائم، رميت الحقيبة التي بها ملابسي وبعض المستلزمات مثل فرشاة الأسنان وصباغ الأحذية وتركت بعض الخبز الذي جلبته معي للحاجة الماسة وتمددت أكثر وتمددت بقربي جمانة، وغفا توفيق جالساً وحازم أصبح يبكي من وجع رجليه، الطفلة الصغيرة لأم عزَّام استفرغت ما في بطنها على أمها فضربتها فزاد بكاؤها، وأبو هادي الرجل الستيني أصيب بالإسهال فتلوثت ملابسه والناس صارت

تفكر أن ترمي نفسها في البحر، هذا هو الموت مع سبق الإصرار والترصد، حقيقة لا أدري ما الذي جعلني مستكيناً تماماً دون أي تفكير أو حراك أو تذمر، لا أدري، عندما غرقت في الشواطئ الليبية، ضربت المهرب الذي كان موجوداً على الشاطئ ولطمته وشتمته بينما هنا لا أدري ما حل بي، استسلام مطلق، تلحفت بمعطفي وكذا فعلت جمانة وأسدلنا جزءاً من معطفينا على رزان وكدنا نغفو ولكن لم نستطع.

أشعر بالبرد، قالت.

وأنا أشعر أني البرد نفسه، قلت.

رؤوس أصابعي تجمدت قالت.

ورؤوس أصابعي أيضاً قلت.

مدت قدميها لتعانقا قدميّ، سكت، هكذا أفضل، قالت.

اكتفيت بإيماءة صغيرة من صوتي دلالة الموافقة، اقتربت قليلاً ناحية رزان، واقتربت أنا أيضاً، والمعطف لم يعد يكفي برد جسدي، اخترقتني رائحتها، كان نفسها قد أصبح قريباً مني، شهيَّة أصبحت أم أنها حواء الآن قبل الموت المحتم أم أنني أنا آدم المفجوع برجولته؟ ما بقي من رجولتي وأنا ربع ممدد في قارب في وسط البحر من أربعين سنة من النضال من أجل تحرير بلدي؟ مددت يدي لتمسك يدها من أسفل المعطف، غفت رزان بعمق، يبدو أن دفء جسدينا تمدد بها وإليها فغفت، سكتت جمانة ولم تتكلم، عانقنا ساقينا أيضاً، العتم شديد، وكل مشغول بأمل ضئيل في أن يبقى على قيد الحياة.

جميلة رائحة تبغك، قالت.

شهي نفسك قلت.

تعانقنا وبيننا رزان، لم يكن حبًّا هذا ولم يكن شهوة ولم نكن لنستطيع أن نقوم بعملية جنسية كاملة أو أن نتجرأ على خلع أي جزء من ملابسنا، هذا البرد أقسى من السجن ومفجع أكثر.

مددت يدي إلى نهديها وفركتهما بقوة، شهقت بصمت لكي لا يسمعها أحد، وضعتُ فمي على فمها وأصبحت رزان في وسطنا كرغيف الخبز، قبلتها بعنف وشربت ريقي بعنف أكثر، غرست أظفارها في صدري وشددت يدي على نهديها بشكل أقوى، سحبت وجهها قليلاً كمن أصيب بلسعة عقرب، قلت لها:

هل أصابك عذاب الضمير؟ أم تخشين أن لا يساعدك الله وأنت في هذه المحنة؟

هل تحسب أن الله يكترث لشهوة امرأة فقدت زوجها ولم تلامس رجلاً منذ أكثر من عامين؟ وفقدت عائلتها ووطنها ولم يبقَ لها إلا فتاة صغيرة تنتظر موتها برداً أو جوعاً أو غرقاً في عمق البحر؟ لو كان الله يكترث لما كنا هنا الآن، يا أخي شيلنا من هالحكي الفاضي، قالت ذلك وعادت لتقبل شفتي بنهم أكثر هذه المرة مددت يدي إلى خاصرتها، بطنها الدافئ، سرتها وفخذها، كنت أشعر بدقات قلبها تنفضها في كل مكان، ثم أنزلت يدي إلى مكان شهوتها، شهقت أكثر وعضت

على شفتي أكثر وصرت أدغدغها بعنف، أدغدغها بعنف وهي تشهق وتتنفس بقوة وأنا أشم نفسها بعمق وتشهق بعنف حتى مدت يدها إلى مكان شهوتي وصارت تدلك بقوة وتشهق وأنا أتنفس بسرعة وهي تشهق وأنا لدي تساوى كل العالم، سقطت الأنظمة العربية من المحيط إلى الخليج وعادت فلسطين وعاد اللاجئون الفلسطينيون وانتهت الحروب وعاد السلام إلى العالم، بالنسبة إلي في تلك اللحظة نسيت البرد والسماء العارية والبحر المخيف ونسيت حنقي على مصباح، في تلك اللحظة وأمام صمتنا وشهوتنا وضعفنا ودفئنا الموقت تماهيت وضعفت وقويت في الوقت نفسه، هنا في هذا المكان من الكون ونحن وحدنا، انتهت مشاكل الفقر والبطالة وسوء التغذية ولم يبق لي في هذا العالم إلا جمانة والرغيف الصغير بيننا رزان.

انتشينا، سكتنا وصمتنا ولم نتكلم، ولكن بقينا في حالة العناق نفسها، أنا الذي منذ سنين طويلة لم يعد يخطر الجنس لي على بال وهي التي لم تلامس رجلاً منذ عامين، ننتشي هنا في هذا المكان على هذا القارب في تلك الساعة التي بيننا وبين الموت قيد إصبع، كم بائس أنت أيها الإنسان وكم نهاياتنا مثل بداياتنا..... مفجعة.

لم يمض وقت طويل على غفوتنا السعيدة، حتى كان صوت قوي قد سمعناه، في البداية حسبت نفسي أحلم أو أنني في كابوس، كانت قنبلة ضوئية قد انفجرت في الأجواء، سمعت أصواتاً مختلطة، أم قاسم قالت:

بسم الله الرحمن الرحيم شو هاد؟

أبو حسين بدأ بقراءة المعوذات، وفادي الشاب الناعم واجم على ما يبدو لا يتحرك وجمانة تشبثت بي ورزان استفاقت تبكي:

ماذا جرى؟ سأل توفيق؟

لا أدري، أجبته.

نظرت أمامي محاولاً تفحص وجه حازم كان ممتقعاً حتى الاصفرار، هو يخاف البحر أصلاً ويخاف الظلام أكثر هكذا قال لي، عدَّلت جمانة من جلستها قليلاً ثم قالت:

يبدو أنه يجب علينا توديع بعضنا بعضاً.

صلي عالنبي يا أم رزان قال حازم.

هههههههه قهقهت بصوت عال:

إي صليت بس خلص يبدو أن نهايتنا اقتربت، يريدون التخلص منا هكذا قالت ثم بدأ صوت رصاص يأتي من كل حدب وصوب صرخنا جميعنا وصرخت جمانة ألم أقل لكم؟

كنت قد قرأت أن بعض خفر السواحل يطلقون الرصاص لإغراق القوارب التي تعبر نحو الضفة الأخرى من المتوسط، وأن هذا يحدث للتخفيف من حدة الهجرة اليومية التي تتم من الشرق إلى الغرب ولكن هذا الذي قرأته كان يخص الدول التي تقع جنوب المتوسط ولم أتوقع أن يحدث هذا من جهة اليونان أو تركيا، كان ملاك الموت مستنفراً والرصاص في كل مكان، ولكن لم يصمت أحدٌ في القارب، جلبة

كبيرة والجميع يصرخ حتى أنا رحت أصرخ، تشبثنا بعضنا ببعض أنا وتوفيق وجمانة وحازم وكانت رزان بيننا وكادت تختنق لولا احتراس جمانة، كان يشبه يوم الحشر لا يوم القيامة، عتم وليل ورصاص وصراخ وعويل وقارب ضيق ومصباح لم يعد له وجود، سمعت لاحقاً أن أحد الركاب ومن شدة غيظه منه خنقه في الماء، رمينا آخر ما تبقى معنا من أمتعة في محاولة لتدارك الموقف، للأسف كان الموقف مأسوياً والفوضى ابتلعت كل شيء وبدأ المركب بالتأرجح يميناً وشمالاً وإلى الأمام والخلف وصوت ارتطام الأشياء في الماء أصبح متتالياً لا نعرف هل هم أشخاص أم أغراض ثم بدأ خشب القارب بالتشقق قليلاً ثم ما لبث أن...

قاطعته المضيفة:

سيد موشي هل تريد كأساً أخرى؟ نسي لوهلة أن اسمه موشي على متن الطائرة، التفت إليها محاولاً التذكر ثم استدرك نفسه فابتسم ثم قال:

نعم سيدتي، كأس أخرى من الفودكا لو سمحت لي ولكن بلا عصير هذه المرة، سادة.

ألقت المضيفة ابتسامة أخرى وانصرفت لجلب الكأس.

ثم ما لبث أن انقلب القارب وابتعدنا بعضنا عن بعض وصار كل منا يحاول استخدام دافعة أرخميدس وكل قواه ليخرج فوق الماء، لم أعد أشاهد أحداً منهم ولم أعد أستطيع التنفس ولكن كان هناك شيء

متمسك بي وكنت حتى تلك اللحظة غير مستوعب ما جرى ولكن بدأت بالانتباه لكل شيء حولي وأول شيء هو الظلام، ظلام دامس كحيواتنا الطويلة التي عشناها. في تلك اللحظات تذكرت كل شيء، ضيعتي الصغيرة في الضفة الغربية ومخيمي الصغير جنوب دمشق ورحلتي من مصر وقدومي إلى هنا وأنفاس جمانة التي لم تمحها مياه البحر بعد، وعرفت الآن أن من كان متعلقاً بي هو رزان، ما الذي جرى حتى تتكرر معي هذه الحادثة مرتين متتاليتين في كارثتين متتاليتين، الله ما أصعب تشبث طفل بك، ولكن هذه المرة اتخذت قراراً نهائياً إما أن أعيش أنا ورزان وإما أن أموت أنا وهي؛ أمسكتها بقوة وغصت بها تحت القارب، جمعت كل ما أعطاني إياه الله من قوة في كل حياتي وتجاوزت القارب حتى صعدت برأسي فوق الماء وأخذت نفساً عميقاً واستنشقت كذلك رزان وهي ترتجف من البرد، وكل الدنيا عتم ظلام، أصوات بعيدة لا أعرف أي صوت منها وأنا لم أعد أعرف أين أنا وإلى أين أتجه، استدرت في مكان، ضوء وحيد في البعيد، قلت لنفسي قد يكون هذا هو الشاطئ، سبحت نحوه، خشيت أن يكون سراباً بحرياً، في الصحراء السراب خيال ماء وفي البحر قد يكون السراب خيال ضوء، سبحت وتركت كل شيء ورائي، أصبحت رزان قضيتي، قلت لنفسي إذا أنقذتها قد أنقذ نفسي من عقدة الذنب التي أعيشها وعشتها طوال عمري، أليس كل واحد منا يعتبر نفسه المسؤول الأول عن كل الهزائم التي لحقت بنا؟.

وصلت أخيراً إلى الضوء، ارتحت عدة مرات في الطريق، لا أعرف تماماً كم استغرق الوقت ولكن وصلت ولم يكن الضوء إلا عبارة عن يخت سياحي لرجل مع صديقته، صرت أضرب على خشب اليخت بشكل جنوني، خرج الرجل ليستطلع الأمر وما إن رآني حتى انتشل رزان من يدي وانتشلني ونحن كالأموات، كان الرجل وصديقته بمنتهى اللطف، رجوته فوراً أن يتصل بالنجدة ورجوته أن نتجه نحو الحادث لعلّنا ننقذ أحداً، اعتذر بلطافة وقال إنها ليست مسؤوليته ولكن سيتصل بقوارب الإنقاذ وبالشرطتين التركية واليونانية وفعلاً فعل وبعد أقل من نصف ساعة كانت طائرتان مروحيتان تحلقان في الأجواء وزوارق تحاول إجلاء الغرقى.

الفصل الأخير

تنفس أبو مراد الصعداء وهو يتجاوز بوابة الصالة الداخلية في مطار روما الدولي، لم يكن هناك حدود جمركية بين إيطاليا واليونان، ابتسم ابتسامة صفراء ثم قال لنفسه:

إيبيه متلنا نحن العرب بفرد شكل ممنوع فوت على لبنان أو الأردن، بس موت يا فلسطيني.

رغرغت الدمعة في عينيه مرة أخرى وهو يرى اللوحة مرفوعة بأعلى الممر المعد لانتظار المسافرين ومكتوب عليها (موشي) كان اسمه في جواز السفر مرفوعاً على اللافتة، وصل إلى ناحية النافذة وألقى التحية بالعربية، أنزل الرجل اللوحة وابتسم ثم قال لأبي مراد:

أهلاً بك، نحن السابقون وأنتم اللاحقون ثم ضحك.

ضحك أبو مراد بدوره ثم قال:

شكراً أستاذ عمران على تلبيتك طلبي بقدومك إلى هنا.

لا على العكس تماماً أنا سعيد جداً لقيامي بهذا الواجب، لا

أخفي عنك شدة حـزني علـى وسيم وجمانة كبيرة جداً، كانا إنسانين عظيمين.

نعم للأسف، ما زالت جمانة حتى الآن في عداد المفقودين لا أدري ماذا يمكن أن يكون قد جرى لها، أتمنى أن تكون بخير، قال ذلك أبو مراد بينما يضع حقائبه في حقيبة سيارة عمران.

جميلة رزان تشبه أمها وأباها قال ذلك عمران وهو يداعب وجه رزان النائم.

صحيح فيها من أمها الكثير ولكن للأسف لا أعرف أباها.

في كل الأحوال الحمد لله على سلامتك يا سيد أبي مراد، كانت تجربة قاسية عليك.

نعم كانت قاسية ولكني الآن تجاوزتها، أتمنى أن تفرجِ الأمور على كل إنسان في ضيق وكربة.

سنتناول الغداء الآن في مطعم يقدم طعاماً إيطالياً جيداً ثم بعد ذلك نفكر في ما نفعله.

اعذرني أخ عمران، أنا عليَّ أن أستقل القطار إلى ألمانيا، سامحني لا أستطيع التأخر ولكنك أصررت أن تحتفظ برزان وقد اقتنعت بذلك لأني بصراحة سأقدم لجوءاً في إحدى الدول ولا أعرف مصيري بعد.

لا تهتم رزان ستكون قطعة مني.

بالمناسبة، عرفت أنك فلسطيني الأصل.

صحيح.

ولكنك لم تعلق على اسم موشي؟

ما عليَّ من الأسماء ألم تنقذ رزان؟ كم من الأشخاص يحملون أسماء محمد وأحمد وعيسى ومصطفى وجورج وبولس قتلوا باسم هذه الأسماء؟ ثم إنك ناج من البحر فمن المؤكد أنك لست إسرائيلياً أتيت إلى أوروبا طلباً للجوء هههههه أنا أتفهم ذلك.

هزَّ أبو مراد رأسه دلالة التفهم.

وصلا إلى محطة القطار الرئيسية في روما، ترجل أبو مراد وعمران، سلم أبو مراد الأمانة إلى عمران وتعانقا وقبل أن يدلف أبو مراد إلى المحطة قال لعمران:

احرص عليها فهي من تبقى

....

إعلان أخير

نشرت الصحف في صباح الثامن والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ألفين وثلاثة عشر، أن قارباً يقل مهاجرين غير شرعيين غرق في المياه الدولية بين تركيا واليونان بسبب الحمولة الزائدة، وذكرت الأخبار أن قوارب حرس الحدود اليونانية والتركية تعاونت على إجلاء الناجين وجثث الميتين إثر الحادث، وذكرت الأخبار أيضاً أنه علم من بين الناجين شاب اسمه حازم، ومجموعة أخرى، وعرفت جثة شخص يسمى توفيق، بينما فقدت امرأة اسمها جمانة، في حين نجت ابنتها من الغرق، بعدما أنقذها رجل اسمه نادر شفيق الصوان ثم أغلق الخبر.

المحتويات

عندما ننظر إلى الشرق، نشعر أن دخاناً ملعوناً يخرج من فوهة صدور أهله، حرموا الحب وعاشوا الحرب، وكأن اقتراب الكلمتين لفظاً باعدهما واقعاً ومزج بينهما ليشكل كلٌ منهما منهجاً لحياة الشرقي لا فكاك منه، وبقدر ما أعطى في الشرق إنجازات للبشرية، بقدر ما قدَّم بؤساً ولؤماً وخيانات.

آخر ما تبقى من الزنبقة، تقدّم الوجع المشرقي لمن يرغب أن يشعر به.

إيهاب عبد ربه سوري الحياة والجنسية، منفي ومحامٍ وكاتب مقالة. «آخر ما تبقّى من الزنبقة» عمله الروائي الأول.

